التَّصْفِيَةُ وَالتَّرْبِيَةُ

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله تعالى



(١)

إن الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنَا ومن سيِّئَاتِ أعمالِنَا، مَن يهده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالىٰ، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ(١).

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يفتتح بها خطبه، ويعلِّمها أصحابه -رضوان الله عليهم-، وقد وردت من طرقٍ عن ابن مسعود، وجابر، وابن عباس، وعائشة، وغيرهم ﭫ.
وأخرج ذلك: أحمد في المسند (١/ ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٩٢، ٤٣٢)، ومسلم في كتاب الجمعة: باب تخفيف صلاة الجمعة (٨٦٨)، والنسائي في كتاب الجمعة: باب كيفية الخطبة وكيف =

أمَّا بعدُ:

فعن عبدِ الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذَا تَبَايَعْتُم بالعِينةِ، وأخَذْتُم أذنَابَ البقرِ، ورَضيتُم بالزَّرعِ، وتَرَكْتُم الجِهَادَ؛ سَلَّطَ الله عليكُم ذُلًّا لا يَنْزِعُه عَنْكُم، حَتَّىٰ تَرجِعُوا إلىٰ دِينِكُم**»[1].

=

الخطبة (٣/ ١٠٤، ١٨٨)، وأبو داود في كتاب النكاح: باب في خطبة النكاح (٢١١٨)، والترمذي في كتاب النكاح: باب ما جاء في خطبة النكاح (١١٠٥)، وابن ماجه في كتاب النكاح: باب خطبة النكاح (١٨٩٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٢، ١٨٣)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٧/ ١٤٦)، وقد جمع طرقها، وحرَّرها، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله تعالىٰ- في رسالة مستقلة.

(١) **صحيح بمجموع طرقه**: أخرجه أبو داود في سننه ١٧- كتاب البيوع، ٥٦- باب في النهي عن العينة رقم (٣٤٦٢/ ٣/ ١٥٠٢)، والبيهقي في «**السنن**» كتاب البيوع، باب كراهية التبايع بالعينة (٥/ ٣١٦)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**» (٥/ ٢٠٩)، والدولابي في «**الكنىٰ**» (٢/ ٦٥)، وابن عدي في «**الكامل**» (٢/ ٢٥٦)، والطبراني في «**مسند الشاميين**» (ص٤٦٤)، وصححه الشيخ الإمام رحمه الله في «**السلسلة الصحيحة**» (١/ ١٤/ ٤٢)، وقال: «حديث صحيح لمجموع طرقه، وقد وقفت علىٰ ثلاث منها، كلها عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا:

الأولىٰ: عن إسحاق بن أبي عبد الرحمن، أن عطاء الخراساني حدَّثَه أن نافعًا حدَّثَهُ، عن ابن عمر قال: فذكره.

الثانية: عن أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهي في المسند رقم (٤٨٢٥)، وفي الكبير عند الطبراني (٣/ ٢٠٧/ ١)، وهو إسناد جيد كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢٩/ ٣٠): وقد روىٰ أحمد وأبو داود بإسنادين جيدين عن ابن عمر: فذكره..

الثالثة: عن شهر بن حوشب عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهي عند أحمد في المسند (٥٠٠٧)».

أخرجه أبو داود، والبَيهَقيُّ، والدُّولابي في «**الكنىٰ**»، وابن عَدِيٍّ في «**الكامل**»، وهو حديثٌ صحيحٌ، شَخَّصَ فيهِ الرسولُ ﷺ الداءَ ووصَفَ الدواءَ.

فأمَّا الداءُ -بالعَرَضِ الذي أتَىٰ بِهِ المَرضُ؛ من الذلِّ النازلِ الذي لا يُنزَعُ إلا بالدواءِ- فأصله فيما ذَكَرَ الرسولُ ﷺ، وضَربَ مثالًا: «**إذَا تَبَايَعْتُم بالعينةِ**»، وهي صورةٌ من صُورِ التَّحايل علىٰ الرِّبا؛ وذلك أن يَذهَب الرجلُ إلىٰ بَائعٍ، فيشتري منه سَيَّارةً -مثلًا- بعَشرَةِ آلافٍ، إلىٰ أَجَلٍ، ثُمَّ يبيعُ المشتري للبائعِ ما اشتراهُ بثمنٍ نقديٍّ حَالٍّ، هُو أقلُّ من ثمنِ الأَجَلِ، فيشتري بعشرَةِ آلافٍ إلىٰ أجَلٍ، ثُمَّ يبيعُ لمن اشترىٰ مِنهُ بثمانيةِ آلافٍ نَقدًا، فَيقبضُ النَّقدَ، ويظلُّ في ذمته عَشْرَةُ آلافٍ في مُقَابلِ ثمانيةِ آلافٍ، فدخلت السِّلْعَةُ بَينَ البيع والشراءِ، من أجلِ التوصُّلِ بالحيلة إلىٰ الرِّبَا[1].

(١) **العينة**: هي بكسر العين وفتح النون، من «**عين**»، وعين الشيء: ذاته، وعين الميزان: جوره، وعند البعض: «**العدول عن القرض إلىٰ بيع عين بذاتها للمستقرض بسعر أغلىٰ**».

وعند البعض: «**بيع الشيء نَسيئةً بثمن، ثم شراؤه ممن باعه إياه نقدًا بثمن أقل**».

وقال الجوهري: العينة -بالكسر- السلف. وقال: وعين: أخذ بالعينة -بالكسر- أي السلف، أو أعطىٰ بها. قال: والتاجر باع سلعته بثمن إلىٰ أجل، ثم اشتراها منه بأقل من ذلك الثمن.

وقال الرافعي: وبيع العينة هو أن يبيع شيئًا من غيره بثمن مؤجَّل ويُسلمه إلىٰ المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن نقد أقل من ذلك القدر.

وقد ذهب إلىٰ عدم جواز بيع العينة مالك وأبو حنيفة وأحمد، وجوَّز ذلك الشافعي وأصحابه، راجع في بحث هذا الحديث: «**عون المعبود**» للمباركفوري (٩/ ٢٤٢)، و«**تعليق ابن القيم علىٰ تهذيب سنن أبي داود**» للمنذري بهامش «**تهذيب السنن**» (٩/ ٢٤٢)، و«**نيل الأوطار من أسرار منتقىٰ الأخبار**» للشوكاني (٦/ ٥٦٨).

«**وأَخَذْتُم أذنَابَ البَقرِ، ورَضيتُم بالزَّرعِ**»، أي: أخلدتُم إلىٰ الأرضِ، وتركتُم مَعَالِي الأمُورِ، ورضيتُم بالدُّونِ، فأصابَكُم الهُونُ لأجلِ ذلكَ، وأفضَىٰ حُبُّ الدنيا لتركِ الجِلادِ في سبيلِ الله -جَلَّ وعلَا- فكانت النتيجةُ المشئومَةُ ما ذكر الرسولُ ﷺ: «**سَلَّطَ الله عَلَيْكُم ذُلًّا لا يَنزِعُه عنكُم، حتَّىٰ تَرجِعُوا إلىٰ دِينُكُم**». والتنكير في قولهِ ﷺ: «**ذُلًّا**»، للتفخيم والتهويل، ... «**سَلَّطَ الله عليكُم ذُلًّا**»، لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، ولا يُعرَفُ مِقْدَارُهُ.

وهذهِ من علاماتِ نبوة نبينا محمدٍ ﷺ، والواقعُ خيرُ شاهدٍ، والعالَمُ خيرُ مَشْهُودٍ في هذا الذي وَصَفَه الرسولُ ﷺ، ويبقىٰ العلاجُ كما هو من أجلِ الوصولِ إلىٰ الشفاءِ: «**لا يَنزِعُه عنكم حتَّىٰ تَرجِعُوا إلىٰ دِينِكم**».

والنبيُّ ﷺ ذكر هاهنا أمرين: «**حتىٰ تَرجِعُوا إلىٰ دِينكُم**»، فكيف يكون الرُّجُوعُ؟ ثم ما المرجُوعُ إليه؟

هاهنا من أجلِ تحصيلِ الشفاءِ ورَفعِ الداءِ، وتحصيل الدواءِ، والخروجِ من المذَلَّةِ الموصُوفةِ في الحديثِ تفخيمًا وتَهويلًا، من أجلِ أن يُرفَعَ ذلك، وأن يُستَتبَّ الأمرُ للمسلمين علىٰ الوَجه، ينبغي أن تنظرَ في دواءِ النبي ﷺ: «**حتَّىٰ تَرجِعُوا إلىٰ دِينكُم**».

فما هو الدين؟ وكيف يكونُ الرجوعُ؟

سؤالان كبيران لابُدَّ من الإتيانِ بِهما هاهنا، مِن أجلِ الوصولِ إلىٰ حقيقةِ الدواءِ الموصوفِ مِن فِيِّ رسولِ الله ﷺ.

أما الدينُ فَلا خِلافَ علىٰ أنه مَا جَاءَ به محمدٌ ﷺ؛ الكتابُ والسُّنَّةُ.

أخرجَ الحاكم فِي «**المستدرك**» بإسنادٍ صحيحٍ عن أبي هُريرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**تَركَتُ فيكُم شَيئَينِ لن تَضلُّوا بَعْدَهُما أبدًا؛ كتَابَ الله وسُنَّتي، ولن يَتَفرَّقَا حتَّىٰ يَرِدَا علَيَّ الحوضَ**»[1].

معلومٌ أنَّ الدينَ دَخَلَ فيهِ كثيرٌ مما ليس مِنه، والتصقَ به كثيرٌ مما ينبغي أن يُفصَلَ عنه، فكيفَ يَصِلُ المسلمونَ اليومَ إلىٰ حقيقةِ قولِهِ ﷺ: «**دينكم**»؟

دَعْكَ الآنَ مِن كيفيةِ الرجوعِ، وإنَّمَا ما هو الدينُ المرجُوعُ إليه حتىٰ يمكنَ أن يُوصَفَ الطريقُ الذي يُوصِّل إليه؟

إنَّ النبيَّ ﷺ تَرَكَ الأمةَ علىٰ المحَجَّةِ البيضاءِ، ليلُها كنهارِها لا يَزِيغُ عَنْهَا

(١) أخرجه الحاكم في «**المستدرك**» ٢- كتاب العلم (ح٣١٩/ ١/ ١٧٢)، ومالك في «**الموطأ**» بلاغًا ٤٦- كتاب القدر، ١- باب النهي عن القول بالقدر (ح٣/ ٢/ ٨٩٩)، والبيهقي (١٠/ ١١٤)، والدارقطني (٤/ ٢٤٥)، وابن عبد البر في «**التمهيد**» (٢٤/ ٣٣١)، والعقيلي في «**الضعفاء**» (٢/ ٢٥٠)، والخطيب في «**الكفاية**» (ص٤٣٠)، وابن حزم في «**الإحكام**» (٦/ ٢٤٣)، جميعًا من طريق صالح بن موسىٰ، عن عبد العزيز بن رفيع، به.

وسنده ضعيف لضعف صالح بن موسىٰ.

وحديث أبي هريرة له شواهد من حديث كل من عبد الله بن عباس وأبي سعيد الخدري وغيرهما كما في السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٥٥) للشيخ ناصر الدين الألباني وقال رحمه الله: «وإن كانت مفرداتها لا تخلو من ضعف فبعضها يقوي بعضًا وخيرها حديث ابن عباس» وقد صححه الشيخ ناصر رحمه الله في «**السلسلة الصحيحة**» رقم (١٧٦١/ ٤/ ٣٥٥)، وفي «**المشكاة**» (١٨٦)، وفي «**صحيح الجامع الصغير**» (٣/ ٣٩).

إلا هَالِكٌ، وقد دَخَلَ فِي الدِّينِ والتصق به ما لَيسَ منهُ؛ فِي العقائِدِ والعباداتِ والأخلاقِ والسلوكِ والمعاملاتِ، وفِي التاريخِ والتفسير والفقه والحديثِ، وما أشبَهَ مِن عُلومِ الدين الحنيفِ.

والسبيلُ للوصولِ إلىٰ حقيقةِ الدينِ بِنَفي ذلك عنه تَكمُنُ فِي شيءٍ يسيرٍ جدًّا بفضل الله -جَلَّ وعَلا- وهو تَصفيةُ الدينِ مما لَحِقَ بِهِ.

وأمَّا كيفيةُ الرجوعِ إليه فتتلخصُ فِي كلمةٍ يسيرة جدًّا بفضلِ الله -جَلَّ وعَلا-، وهي تربيةُ الأمةِ علىٰ الدينِ المُصَفَّىٰ الذي قد تَحَدَّد مِن قِبلَ المصطَفَىٰﷺ.

ولا تَحْسَبَنَّ هَذا منهجًا مُبتَدَعًا، ولا هو من تنظيرِ مُنَظِّرٍ، ولا مِن عَبَثِ عابثٍ، ولا فِكرِ مُفَكِّرٍ، وإنَّما هو مَا جَاءَ به الأكرمُ محمدٌﷺ...كيف؟

خُذْ طريقتهﷺ فيما يتعلقُ بأمرِ العقيدةِ تصفيةً وتربيةً مثلًا بفضل الله -جلَّ وعَلا-.

ففي صحيحِ مسلم: كان النبيُّﷺ يومًا جالسًا، فقام رجلٌ من وفدٍ بين يديهِ خطيبًا، يقولُ عَديُّ بن حاتم[1] رضي الله عنه: فقال الخطيبُ -خطيبُ القومِ- مَن

(١) عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، أبو طريف، ويقال: أبو وهب، قدم علىٰ النبيﷺ في شعبان سنة (٧ من الهجرة) قال أبو حاتم السجستاني في كتاب المعمرين: قالوا: وعاش مائة وثمانين سنة. وقال خليفة: مات بالكوفة سنة ٦٨ من الهجرة.
وقال ابن حجر فِي «التقريب»: صحابي شهير، وكان ممن ثبت علىٰ الإسلام في الردة، وحضر فتوح العراق وحرب علي.
=

يُطعِ الله ورسولَه -فَفَصَلَ هاهنا-، فقد رَشَدَ، ومن يَعصِهمَا -فجمعَ هاهنا- فقد غَوَىٰ، فقالَ النبيُّ ﷺ مُصَفِّيًا عقيدةَ الرجلِ، مُربِّيًا الرَّجلَ علىٰ ما صَفَّاه من أمرِ عقيدتِه: «**بئسَ الخطيبُ أنتَ، قل: ومَن يَعصِ الله ورسولَهُ فَقَدْ غَوَىٰ**»[1].

فانظر في أمرِ العقيدةِ كيف يُصفِّي ويُربِّي في آنٍ معًا ﷺ.

وفي الحديثِ الصحيحِ الذي أخرجه الإمام أحمد في «**المسند**» وكذا النسائي في سننه عن قُتَيْلَة[2] -وهي امرأة من جُهَينة- رضي الله عنها: أنَّ يهوديًّا أتىٰ

=

راجع في ترجمته: «**تهذيب الكمال**» رقم (٣٨٨٤/ ١٩/ ٥٢٤)، و«**الجرح والتعديل**» (٧/ ترجمة رقم ١)، و«**الكاشف**» (٢/ ترجمة رقم ٣٨١١).

(١) أخرجه مسلم في «**صحيحه**» ٧- كتاب الجمعة، ١٣- باب تخفيف الصلاة والخطبة (ح٨٧٠/ ٢/ ٥٩٤)، والنسائي في سننه ٢٦- كتاب النكاح، ٤٠- باب ما يكره من الخطبة (ح٣٢٧٩/ ٦/ ٩٠)، وأبو داود في سننه ٢- كتاب الصلاة، ٢٢٩- باب الرجل يخطب علىٰ قوس (ح١٠٩٩/ ١/ ٤٧٤) والحاكم في المستدرك ٥- كتاب الجمعة (ح١٠٦٥/ ١/ ٤٢٦) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٥٦).

والحديث كما في صحيح مسلم من طريق سفيان بن سعيد، عن عبد العزيز بن رفيع، وعن تميم بن طرفة، عن عدي بن حاتم، أن رجلًا خطب عند النبي ﷺ فقال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوىٰ»، فقال رسول الله ﷺ: «**بئس الخطيب أنت، قل: من يعص الله ورسوله**». قال ابن نمير: «**فقد غوىٰ**».

(٢) قُتَيْلة بنت صَيفي الأنصارية، وقيل: الجُهَنيَّة. كانت من المهاجرات، وروت عن النبي ﷺ حديثًا، راجع في ترجمتها «**التقريب**» رقم (٨٧٠٥)، «**وتهذيب الكمال**» رقم (٧٩٠٩/ ٣٥/ ٢٧٠).

النَّبِيَّ ﷺ فقالَ: «إنَّكُم تُنَدِّدُون، وإنَّكُم تُشرِكُون؛ تَقُولون: مَا شَاءَ الله وشَئتَ، وتَقُولُون: والكَعْبَة، فَأَمَرَهم النبيُّ ﷺ إذا أَرَادوا أن يَحلِفُوا أنْ يَقُولُوا: وربِّ الكَعْبَةِ ويَقُولُ أحدُهُم: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئتَ»[1].

وفي الحديث الصحيحِ عن حُذيفة[2] رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لا تقولوا: ما شَاءَ اللهُ وشَاءَ فُلانٌ، ولكنْ قُولُوا: مَا شَاءَ الله، ثُمَّ شَاءَ فُلانٌ**»[3].

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي في «**سننه**» ٣٥- كتاب الأيمان والنذور، ٩- باب الحلف بالكعبة (ح٣٧٧٣/ ٧/ ٦)، والنسائي في «**الكبرىٰ**» ٨١-كتاب عمل اليوم والليلة، ٢٣٣- باب النهي عن أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان. (ح١٠٨٢٢/ ٦/ ٢٤٥)، والحاكم في «**المستدرك**» ٤٢- كتاب الأيمان والنذور (ح٧٨١٥/ ٤/ ٣٣١)، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في «**مسنده**» (٦/ ٣٧١، ٣٧٢)، والطحاوي في «**مشكل الآثار**» (٣/ ٢١٦): جميعًا من طريق معبد بن خالد، عن عبد الله بن يسار، عن قتيلة رضي الله عنها.

(٢) حذيفة بن اليمان بن جابر العَبسي، أبو عبد الله، حليف الأنصار، من أعيان المهاجرين، صاحب سر النبي ﷺ، له في الصحيحين اثنا عشر حديثًا وفي البخاري ثمانية، وفي مسلم سبعة عشر حديثًا، آخىٰ النبي ﷺ بين حذيفة وعمار كما هو عند ابن إسحاق، وولي حذيفة إمرة المدائن في خلافة عمر رضي الله عنه، فبقي عليها إلىٰ بعد مقتل عثمان، وتوفي بعد عثمان بأربعين ليلة سنة ست وثلاثين، وله عَقِبٌ.

راجع في ترجمته: «**سير أعلام النبلاء**» (٢/ ٣٦٨)، و«**تهذيب الكمال**» (٢٤١)، و«**شذرات الذهب**»، و«**تاريخ الإسلام**»(٢/ ١٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» ٣٦- كتاب الأدب، ٨٤- باب لا يُقال: خَبُثَت نفسي (ح٤٩٨٠ / ٤/ ٢١٢٠)، والنسائي في ٨١- عمل اليوم والليلة، ٢٣٣- باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان (ح١٠٨٢١/ ٦/ ٢٤٥)، والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٩٨)، والبيهقي في

وفِي حديث الطُّفَيلِ[1] **-أخي عائشةَ لأمِّها- أنَّه قالَ:** «رأيتُ كأنِّي أتيتُ علىٰ نَفَرٍ من اليهودِ؛ قُلت: إنكُم لأنتُمُ القَومُ لولَا أنكم تقولون: عُزَيرٌ ابنُ الله، قالُوا: وأنتم لأنتُمُ القَومُ لولا أنكم تقولون: مَا شَاءَ الله وشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مررتُ بِنَفَرٍ من النَّصَارَىٰ، فَقُلت: إنَّكُم لأنْتُمُ القَومُ لولا أنَّكُم تَقُولون: المسيحُ ابنُ الله، قَالُوا: وإنَّكُم لأَنتُمُ القَومُ لولا أنَّكُم تَقُولون: مَا شَاءَ الله، وشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلمَا أصبحتُ؛ أخبرتُ بها من أخبرتُ، ثُمَّ أتيتُ النبيَّ ﷺ، فأخبرتُهُ، قال: «**هَلْ أخبرتَ بِهَا أحدًا؟**»، قُلت: نعم، قَالَ: فحمدَ الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**أمَّا بعدُ، فإن طُفَيلًا رأىٰ رؤيا أخبر بِهَا مَن أخبرَ منكم، وإنَّكم قُلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها؛ فلا تقولوا: ما شاءَ الله وشَاءَ محمَّدٌ، ولكن قُولوا: مَا شَاءَ الله وحدَهُ**»[2].

=

«**شُعب الإيمان**» (٤/ ٥٢٢٢)، والطحاوي في «**المشكل**» (١/ ٩٠)، وابن أبي الدنيا في «**الصمت**» (٣٤١)، وابن السني في «**عمل اليوم والليلة**» (٦٧١)، جميعًا من طريق شعبة... به.

والحديث صححه الإمام النووي في «**الأذكار**» (٣٠٨)، وفي «**رياض الصالحين**» (١٧٤٨)، قال الخطابي وغيره: هذا إرشاد إلىٰ الأدب، وذلك أن الواو للجمع والتشريك و«**ثم**» للعطف مع الترتيب والتراخي، فأرشدهم ﷺ إلىٰ تقديم مشيئة الله -تعالىٰ- علىٰ مشيئة من سواه.

(١) الطُّفَيلِ بن عبد الله بن سَخبرة القرشي، له صحبة، وهو أخو عائشة لأمها، قال الحافظ ابن حجر في «**التقريب**»: صحابي له حديث.

راجع في ترجمته «**التقريب**» (٣٠٢٩)، و«**طبقات ابن سعد**» (٣/ ٥٢)، و«**الإصابة**» (٢/ رقم ٤٢٥٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه في «**سننه**» ١١- كتاب الكفارات، ١٣- باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت (ح٢١١٨/ ١/ ٢٨٥)، وقال البوصيري في «**الزوائد**»: رجال الإسناد ثقات علىٰ شرط البخاري، وهو من طريق أبي عوانة اليشكري... به. وقد تابعه شعبة عند الدارمي ١٩
=

ومِن هذهِ البَابةِ قولُ ابن عباس رضي الله عنهما: «**مِنَ الشرك قولُ الرجلِ: لولا البَطُّ في الدارِ لأتَىٰ اللصوصُ، ولولا كُلَيبةُ فلانٍ لسَرقَنا اللصوصُ**»[1].

فهذا من ذلك؛ تعلُّمًا، أخذًا، وتربيةً علىٰ تَصفيةِ العقيدةِ التي جاءَ بِهَا محمدٌ ﷺ.

ولا تَحْسَبَنَّ ذلك من بابِ إضاعةِ الوقتِ، فَبِئسَ ما يحسِبُ الحاسِبُون؛

=

- كتاب الاستئذان، ٦٣- باب في النهي عن أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان (ح٢٦٩٩/ ٢/ ٣٨٥)، والخطيب في «**موضح أوهام الجمع والتفريق**» (١/ ٣٠٣)، وتابعه حماد بن سلمة عند أحمد (٥/ ٧٢)، والطبراني في «**الكبير**» (٨٢١٤/ ٣٨٨) وتابعه زيد بن أنيسة عند الطبراني في «**الكبير**» (ح٨٢١٥/ ٨/ ٣٨٨)، وخالف سفيان بن عيينة فأخرجه أحمد (٥/ ٣٩٣)، وابن ماجه (١/ ٦٨٥)، من طريقه عن حذيفة بن اليمان، وكذا معمر بن راشد، فأخرجه الطحاوي في «**المشكل**» (١/ ٩٠)، من طريقه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، ولكن الحافظ ابن حجر رحمه الله رجح أن الحديث من رواية الطفيل (١١/ ٥٤٠ فتح)، وقال الشيخ الألباني رحمه الله: «الصواب أنه من حديث ربعي عن الطفيل؛ ليس عن حذيفة؛ لاتفاق هؤلاء الثلاثة حماد بن سلمة، وأبي عوانة، وشعبة عليه، فهو شاهد صحيح لحديث حذيفة». راجع السلسلة الصحيحة (١/ ح١٣٨/ ٢٦٥).

(١) أخرجه ابن كثير في تفسير سورة البقرة، عند تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، (١/ ٣٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٨١)، وسنده جيد من حديث ابن عباس، وتمامه قال: «الأنداد هو الشرك، أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كَلبة هذا لأتانا اللصوصُ من البارحة، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان. هذا كله شِركٌ».

إذ يقولُ قَائلُهم: إنَّ الأمةَ يشغَلُهَا، ويُحيطُ بِهَا ما يحيطُ بها، وكأنَّ الذي تُعاني منه الأمةُ اليومَ أكبرُ وأجلُّ وأعظمُ مما كانت تُعاني منه الأمةُ علىٰ عهدِ محمد ﷺ إذ قَالَ ما قَالَ، فقد قالَ هذا الكلامَ في حياتِهِ، لا بَعد مماتِهِ، ومعلومٌ أن الفترةَ النبويةَ كانت من أحرجِ الفتراتِ في حياةِ الأمةِ الإسلاميةِ، وكان فيها من الخطرِ علىٰ الأمةِ ما فيها، ويَكفي أن تتذكرَ ما قالَه الرسولُ ﷺ يومَ بدرٍ وهو يناجي ربَّه -جلَّ وعَلا- ويرفعُ يديه عاليًا حتَّىٰ بَدَتْ عُفْرَتَا إبطيه[1] وانحسرت البُردَةُ عن كَتفَيه، وهو يقول: «**اللهمَّ إن تَهلِكَ هَذِهِ العصابةُ** -يعني: أصحابه رضي الله عنهم- **فلن تُعبَدَ في الأرضِ بعدها**»[2].

كيف اتسعَ مع الخطرِ، وكيف استقامَ الأمرُ مع الشُّغل ليأتيَ النبيُّ ﷺ، بأمثالِ هذه الأمورِ، يَحْسَبُها الناسُ هيِّنةً، وهي عِند الله عظيمة؟ **إنه تصفيةٌ للاعتقادِ، وتربيةٌ للأمةِ علىٰ الاعتقادِ المُصَفَّىٰ**.

وهذا مسلمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُخرِّج في صحيحه عن معاويةَ بن الحكم السُّلَمي[3]

(١) قال في «**النهاية**» (٣/ ٣٦١) العُفرة: بياض ليس بالناصع، ولكن كلون عَفَر الأرض، وهو وجهها.

(٢) أخرجه مسلم في «**صحيحه**» ٣٢- كتاب الجهاد والسير، ١٨- باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم (ح١٧٦٣/ ٣/ ١٣٨٣)، وراجع «**السيرة النبوية الصحيحة**» (٢/ ٣٦٢). ومعنىٰ: إن تهلك، ضبطوا: تهلك، بفتح التاء وضمها، فعلىٰ الأول ترفع «العصابة»؛ لأنها فاعل، وعلىٰ الثاني تنصب، وتكون مفعوله.

(٣) معاوية بن الحكم السلمي، روىٰ عن النبي ﷺ، وروىٰ عنه عطاء بن يسار، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، كان ينزل المدينة ويسكن في بني سليم، له عن النبي ﷺ حديث واحد في صحيح مسلم، وبعض أهل الرواية يقسمه إلىٰ أحاديث.

=

رضي الله عنه قال: كانت لي جاريةٌ تَرعىٰ غَنَمًا لي قِبَل أُحُدٍ والجُوَّانيَّة وهي منطقة هنالك في مدينة نبيكم ﷺ، فاطَّلعت ذات يوم -يعني: فذهبتُ لأنظرَ كيف حالُ الأغنامِ مع الجارية- فإذا الذِّيب -هكذا أتىٰ بها مسهَّلةً من غير همز، أي: الذئب- قد ذهب بشاة من غَنَمِها، وأَنَا رجلٌ من بني آدم، آسَفُ كَمَا يأسَفُون -والأسفُ في الأصل: هو الحُزْنُ مع الغضبِ- لكنِّي صَكَكتُها صَكَّةً -يعني: ضربها براحته علىٰ جسدها- فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فعَظَّم ذلك عَلَيَّ قلت: يا رسولَ الله، أفَلا أَعتِقُهَا؟ قال: «**ائتني بِهَا**». فأتيتُه بِهَا، فقالَ لَها: «**أين الله؟**» قَالَت: في السَّمَاءِ، قالَ: «**من أَنَا؟**» قَالَت: أَنتَ رَسُولُ الله، قالَ: «**أعتِقُهَا، فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ**»[1].

=

راجع في ترجمته: «**التقريب**» رقم (٦٧٧٧)، و«**تهذيب الكمال**» رقم (٦٠٤٩/ ٢٨/ ١٧٠)، و«**الكاشف**» (٣/ رقم ٥٦١٣).

(١) أخرجه مسلم في «**صحيحه**» ٥- كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ٧- باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (ح٥٣٧/ ١/ ٣٨١)، وأبو داود في «**سننه**» ٣- كتاب الصلاة، ١٧١- باب تشميت العاطس في الصلاة (ح٩٣٠/ ١/ ٤٠٧)، والنسائي في سننه ١٣- كتاب السهو، ٢- باب الكلام في الصلاة (ح١٢١٨/ ٣/ ١٤)، والشافعي في «**الرسالة**» فقرة (٢٤٢)، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، وأحمد في «**المسند**» (٥/ ٤٤٨)، ومالك في «**الموطأ**» ٣٨- كتاب العتق والولاء، ٦- باب ما يجوز من العتق في الرقاب الواجبة (ح٨/ ٢/ ٧٧٧)، وهو عنده عن عمر بن الحكم، وهو وهم؛ لأنه ليس في الصحابة من يسمىٰ عمر ابن الحكم وإنما هو معاوية بن الحكم، وممن قال بوهم مالك في ذلك الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «**رسالته**» فقرة (٢٤٢)، بعد أن ذكر الحديث من طريق مالك، من طريق عمر بن الحكم، وهو معاوية بن الحكم، وكذلك رواه غير مالك، وأظن مالكًا لم يحفظ اسمه.

=

تَصفيةٌ للعقيدة في أدَقِّ دَقائِقِها.

وانظر إلىٰ هذه الصفةِ من صفاتِ ربِّك -جلَّ وعَلا- يأتي بها النبيُّ ﷺ تَقريرًا، كما أَتَىٰ بِها القرآنُ تصريحًا: «**أين الله**؟ قالت: فِي السماء» واليومَ تجدُ الرجلَ العاميَّ والمثقفَ وأنصافَ المثقفين، تجدُ الواحدَ منهم، عقيدتُه أن الله في كل مكانٍ -تعَالَىٰ الله عما يقولُ الجاهلون عُلُوًّا كبيرًا- بل الله ربُّ العالمين كما أخبرَ عن نفسهِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضعَ فِي القرآنِ العظيمِ[1] هو مُستَوٍ علىٰ عَرشِهِ،

=

وقال السيوطي في «**تنوير الحوالك**» (٣/ ٥): قال النسائي: كذا يقول مالك: عمر بن الحكم، وغيره يقول: معاوية بن الحكم السلمي، وقال ابن عبد البر: هكذا قال مالك: عمر بن الحكم، وهو وهم عند جميع أهل العلم بالحديث، وليس في الصحابة رجل يقال له: عمر بن الحكم، وإنما هو معاوية بن الحكم، كذا قال كل من روىٰ الحديث عن هلال أو غيره، ومعاوية بن الحكم معروف في الصحابة، وحديثه هذا معروف له، وممن نص علىٰ أن مالكًا وهم في ذلك البزار وغيره، والبغوي في «**شرح السُّنَّة**»، باب تحريم الكلام في الصلاة (ح٧٢٦/ ٣/ ٢٣٧)، وذكره الإمام الذهبي في «**العُلُو**» (٨١) بتعليق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني؛ جميعًا من طريق يحيىٰ بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم... الحديث.

(١) أشار إليها ابن شيخ الحزامين في رسالته «**النصيحة في صفات الرب -جلَّ وعَلا-**» بتحقيقي، والمواضع السبعة هي:

١ - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢].

٢ - ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

٣- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩].

=

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

ولا تحسَبَنَّ هذَا الخَلَل في أمورِ الاعتقادِ، ولا تحسَبَنَّ أنَّ ما التَصَقَ بالدِّين من أمرِ الشَّوبِ الذي شَابَ الاعتقادَ والتوحيدَ كَانَ وَقفًا علىٰ الجاهلينَ وحدهم، بل إنَّ أكبرَ مُنَظِّرٍ لأكبر جماعةٍ من الجماعاتِ في هذا العصرِ الحديث، بل مُؤسِّسَها -عفا الله عنه- يقول قولًا عجبًا في الأصل العاشرِ من الأصولِ العشرين؛ يقولُ: «**ومعرفةُ الله -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ- وتوحيدُهُ وتنزيهُه أسمىٰ عقائد الإسلام، وآياتُ الصفات وأحاديثُها الصحيحةُ، وما لَحِقَ بذلك من المتشابِهِ نؤمنُ به كما جَاءَ من غيرِ تأويلٍ ولا تعطيلٍ**»[1]...

سبحان الله، كيفَ تكونُ آياتُ الصفاتِ، وكيفَ تكونُ الأحاديثُ الصحيحةُ في صفاتِ الله -جلَّ وعَلا- من المتشابِهِ؟ ومن المتشابه الذي لا يُعقل له معنىٰ؟ كالأمرِ الذي يتناولُه الأعجمِيُّ لا يفقه فيه شيئًا، فهذا يَتَأَتَّىٰ من مؤسس كُبرَىٰ الحركاتِ الإسلاميةِ في العصر الحديث، فكيف الشأنُ بِمَن دونه؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

=

٤- ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون:٨٦].

٥- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [السجدة:٤].

٦- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الحديد:٤].

٧- ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل:٢٦].

(١) جماعة الإخوان المسلمين، والمراد بمؤسسها: حسن البنا.

ويقولُ أيضًا فِي «رسالة العقائد»[1]: «ونحن نعتقدُ أن رأيَ السلفِ من السكوت وتفويض علمِ هذه المعاني إلىٰ الله -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ- أَسْلَمُ وأَوْلَىٰ بالاتباعِ، حَسْمًا لمادةِ التأويلِ والتعطيل»[2].

(١) راجع «**الأصول العشرين**» لحسن البنا، الأصل العاشر (ص٣٩)، ويتبادر إلىٰ الذهن سؤال: هل ما ذهب إليه حسن البنا هو مما ارتضاه علماء السلف، أم هو علىٰ خلاف ذلك؟

والجواب: كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من قال: إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه، فنقول: أما الدليل علىٰ بطلان ذلك فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا الأئمة، ولا أحمد بن حنبل، ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في الآية، ونفىٰ أن يعلم أحدٌ معناه، وجعلوا أسماءَ الله وصفاتِه بمنزلة الكلام الأعجمي، الذي لا يُفهم، ولا قالوا: إن الله ينزل كلامًا لا يفهم أحدٌ معناه، وإنما قالوا: كلماتٌ لها معانٍ صحيحة. قالوا في أحاديث الصفات: تمر كما جاءت». ثم قال: «وأيضًا؛ فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأئمة قد تكلموا في جميع نصوص الصفات، وفسروها بما يوافق دلالتها، ورووا عن النبيﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن، ولو كان معاني هذه الآيات منفيًّا أو مسكوتًا عنه لم يكن ربَّانيو الصحابة -أهل العلم بالكتاب والسُّنَّة- أكثر كلامًا فيه، ثم إن الصحابة نقلوا عن النبيﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة، ولم يذكر أن أحدًا منهم امتنع عن تفسير آية» اهـ. مختصرًا من «**الإكليل في المتشابه والتأويل**» (ص٣٢).

(٢) مجموعة رسائل البنا: «**رسالة العقائد**» (ص٤٩٨)، وقد فهمنا من كلام الشيخ السابق أنه يرىٰ: «أن رأي السلف ومعتقدهم السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلىٰ الله، وهذا يعني: مجرد الإيمان بألفاظ آيات الصفات وأحاديثها من غير فقه لمعانيها، وهو من التَّقَوُّل علىٰ السلف بلا علم، ولا دليل».

وقد فنَّد الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوال المفوضة وبيَّن بطلان كلامهم، وأنه من شر الأقوال، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وغاية ما ينتهي إليه المعارضون لكلام الله وكلام رسولهﷺ بآرائهم من =

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وإن البحثَ في مثلِ هذا الشأنِ مهما طَالَ فيه القولُ لا يُؤدي في النهايةِ إلا إلىٰ نتيجةٍ واحدةٍ، هي التفويضُ لله -تَبَارك وتَعَالَىٰ-**».

وهذا أمرٌ عجيبٌ جدًّا؛ إذ ليس من عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ التفويضُ.

والتفويضُ -كما يقول علماؤُنا رحمةُ الله عليهم من الأثبات المحققين-: «**التفويضُ شرُّ أقوال أهلِ البدَعِ**»[(١)]. فكيف يكونُ الأمرُ هكذا في هذه المؤسسة الكبيرة التي تريد إقامةَ دينِ الله رب العالمينِ في الأرض؟ ثم لا منهجَ للاعتقادِ هنالكَ أبدًا، وإنما هُو شَوبٌ في شَوبٍ، وخَلْطٌ في خَلْطٍ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويقول كاتبٌ[(٢)] من المعاصرين لذلك الرجل -عفا الله عنه- في كتابه «**أحداث صنعت التاريخ**» عن حسن البنا ما سمعه بنفسه منه في محاضرة له: «**فأُقَرِّرُ إنَّ خُصُومَتَنَا لليهودِ ليست دينيةً؛ لأن القرآنَ حَضَّ علىٰ مُصَافَاتِهم**

=

المشهورين بالإسلام هو التأويل أو التفويض».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أن هذا قَدحٌ في القرآن والأنبياء إذا كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدًىٰ وبيانًا للناس، وأمر الرسولَ أن يبلغ البلاغَ المبين، وأن يبين للناس ما نُزِّل إليهم، وأمر بتدبر القرآن وعَقلِه، ومع هذا فأشرف ما فيه هو ما أخبر به الربُّ عن صفاته، وعن كونه خالقًا لكل شيء وهو بكل شيء عليم».

ثم قال: «فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من أشر أقوال أهل البدع والإلحاد». انتهىٰ من «**درء تعارض العقل والنقل**» (١/ ٢٠١).

(١) العقيدة التدمرية (ص٣٠) لابن تيمية.

(٢) محمود عبد الحليم، وهو من أعمدة جماعة الإخوان المسلمين.

ومُصَادقتِهم، والإسلامُ شريعةٌ إنسانيةٌ قبل أن يكونَ شريعةً قومية، وقد أثنىٰ عليهم، وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]. **وحينما أراد القرآنُ الكريمُ أن يتناولَ مسألةَ اليهود تناولها من الوجهةِ الاقتصادية! والقانونية»!**[1].

لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) «**أحداث صنعت التاريخ**»، لمحمود عبد الحليم (١/ ٤٠٨-٤٠٩)، وإليك أخي القارئ الكريم ما ذكره الدكتور حسن حَتحوت، وهو طبيب بشري من جيل الإخوان في الخمسينيات حيث يقول في كتاب «**حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه**» تحت عنوان: تهمة التعصب (ص١٨٨-١٨٩): «وعلىٰ ذكر قُسُس الأقباط فإن الكثيرين يحاولون أن يُلصقوا بالرجل ودعوته تهمة التعصب ضد النصارىٰ، أو التفرقة بين عنصري الأمة، ويشهد الله ومَن حضرَ من الصادقين أن العكس هو الصحيح، فلم يكن الرجل داعية بُغضٍ ولا تفرقة، وكان يُبرهن أن الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تكون للأقباط؛ لأنها ستطبق علينا وعليهم علىٰ السواء، وأنها لا تُصادر علىٰ طلاق نصرانية النصراني، فإنما هي مجموعة من القوانين لا يوجد في النصرانية بديلٌ لها، ولا نقيض لأحكامها، وأنه لو وُجدت في الإنجيل قوانين فَلتسرِ قوانين الإنجيل علىٰ النصارىٰ، ولا يجد الإسلامُ غضاضةً في ذلك، وما دام رأي الأغلبية لا يتنافَىٰ مع دين الأقلية فليس هناك ظالم ولا مظلوم».

ثم يقول الكاتب نفسه: «وقد وجدت دعوة الرجل صداها وتصديقها لدىٰ ذَوي الفهوم من المسلمين والأقباط، ويكفي أن أذكر الذين يزعمون أن الرجل كان عدو النصارىٰ بأن الأستاذ لويس فانوس -من زعماء الأقباط، وهو في ذمة ربه الآن- كان من الزبائن المستديمين لدرس الثلاثاء الذي يُلقيه حسن البنا، وكانت بينهما صداقة وطيدة، وأن حسن البنا عندما تقدم مرشحًا لانتخابات البرلمان، كان وكيله الذي يمثله في مقر إحدىٰ اللجان الانتخابية رجلًا قبطيًّا».

فلا تحسَبَنَّ حاجةَ الأمةِ اليومَ إلىٰ تصفيةِ الاعتقادِ أمرًا هَيِّنًا، بل يقول أكبر المُنظِّرين السُّوريين[1] في كتابه «**تربيتنا الروحية**»، يقول: إنه قد رأىٰ رجلًا في حادثةٍ مشهورةٍ قد ضُرِبَ بالشِّيش[2] في ظهره، حتىٰ خرجَ من صدرِه، فقَبَضَ عليه، ثم إنه ضُرِبَ به في شِدْقِه فخرج من الشِّدقِ الآخر.

ماذا علَّق الرجل علىٰ هذا الأمر؟ يقول معلقًا: «وفي هذا أعظمُ دليلٍ، وأكبرُ حُجَّةٍ علىٰ الناسِ في إثبات معجزات الأنبياء»... لا حَولَ ولا قُوةَ إلا بالله العلي العظيم.

ولا غَرو أن يقولَ مثلَ ذلك، إذ العقيدةُ لم تكن قد صُفِّيت عنده -رحمةُ الله عليه- بل إنه لَيقولُ: «إنه مَأْذُونٌ من المشايخ الذين تَرَبَّىٰ علىٰ أيديهم في الطريقِ» طريق التصوفِ الممقُوت، يقولُ: «إنه قد أُذِن له بتسليك الطريق للمريدين». ويضع أحوالًا وأقوالًا، يريد أن يجعلَهَا منهاجًا لتلك الحركة الكبرىٰ، كبرىٰ الحركات الإسلامية فِي القرن العشرين، من أَجلِ إقامةِ دينِ الله فِي الأرضِ علىٰ عقيدةٍ مُمَوَّهةٍ، علىٰ عقيدةٍ لا عقيدة فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[3].

---

(١) سعيد حوىٰ -عفا الله عنه-.

(٢) الشيش: عمود من الحديد، طوله يقارب المتر، أو المتر والنصف، وطَرَفُهُ مُدبَّبٌ.

(٣) راجع في بيان موقف الإسلام من الجماعات، كتاب «**حكم الانتماء إلىٰ الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية**» تأليف الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، طبعة قرطبة.

وأمَّا التصفيةُ: تصيفةُ الرسولﷺ لأمر العبادة فخذ إليك مثالًا:

أخرج الشيخان في صحيحهما عن عمَّارِ بن ياسر[1] رضي الله عنه قال: «بَعَثَني النبيُّ ﷺ فِي حاجة، فأَجْنَبَتُ، فلم أجد الماءَ، فتمرَّغتُ فِي الصعيد -يعني: تمَعَّكَ مُتمرِّغًا علىٰ الصَّعيدِ، ظهرًا لبطنٍ، يتقلب علىٰ الترابِ، حتىٰ عمَّ الترابُ جَسَدَه، يريد أنه بذلك يتيمَّم من أجل استباحة الصلاة- كما تمرَّغ الدَّابةُ، فذكرتُ ذلك للنبيﷺ فقال: **إنَّما كانَ يَكْفيكَ أن تصنعَ هكذا** -فضرب بكفه ضربةً علىٰ الأرضِ، ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهَا ظهرَ كَفِّه بِشمَالِهِ، أو ظَهرَ شِمالِهِ بكفِّه، ثُمَّ مسح بِهَا وَجهَه»[2].

النبيُّ ﷺ يُصَحِّحُ العبادةَ مما يشوبها، ويُربِّي علىٰ ذلك تربيةً قائمةً منظورة عمليةًﷺ.

(١) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس العنسي المكي، أبو اليقظان، مولىٰ بني مخزوم، أحد السابقين الأولين، والأعيان البدريين، كان آدم، طوالًا، أشهلَ العين، بعيد ما بين المنكبين، لا يغير شيبه، مات -رحمه الله ورضي عنه- في صفين سنة (٣٧هـ) وله ثلاث وتسعون سنة.

راجع في ترجمته: «**سير أعلام النبلاء**» (١/ ٤٠٦)، «**المعارف**» (ص٢٥٦-٢٥٨)، «**الإصابة**» (٧/ ٦٤)، «**شذرات الذهب**» (١/ ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٧- كتاب التيمم، ٧- باب التيمم ضربة (ح٣٤٠/ ١/ ١٣٣)، ومسلم في «**صحيحه**» ٣- كتاب الحيض، ٢٨- باب التيمم (ح٣٦٨/ ١/ ٢٨٠)، وأبو داود في «**سننه**» ١- كتاب الطهارة، ١٢٣- باب التيمم (ح٣٢١/ ١/ ١٦٩).

وفِي حديث أبي داود -عن جابر بن عبد الله[1] رضي الله عنهما -وهو حديثٌ صحيح- قال: «خرجنا في سفرٍ، فأصابَ رجلًا مِنَّا حَجَرٌ، فشجَّهُ في رأسِهِ، ثم احتلم، فسأل أصحابَه فقال: هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجدُ لك رخصةً وأنت تَقدِرُ علىٰ الماء، فاغتسل فمات. فَلَمَّا قَدِمنَا علىٰ النبي ﷺ أُخبرَ بذلك فقال: **قَتَلُوه قَتَلَهُم الله، ألا سألُوا إذ لم يعلموا، فإنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السؤالُ**»[2].

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام. الإمام الكبير، المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو عبد الله الأنصاري، الخزرجي، السلمي، المدني، الفقيه، من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة موتًا، مات سنة ثمان وسبعين، وعاش أربعًا وتسعين سنة، وأَضَرَّ بأخرة.
راجع في ترجمته «**سير أعلام النبلاء**» (٣/ ١٩٤)، و«**تهذيب الكمال**» رقم (١٨٢)، و«**شذرات الذهب**» (١/ ٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود في «**سننه**» ٤- كتاب الطهارة، ١٢٧- باب في المجروح يتيمم (ح٣٣٦/ ١/ ١٧٩)، والبيهقي (١/ ٢٢٨)، والدارقطني (١/ ١٩٠)، وقال: لم يروه عن عطاء عن جابر غير الزبير بن خَريق، وليس بالقوي، وخالفه الأوزاعي فرواه عن عطاء عن ابن عباس. واختلف علىٰ الأوزاعي، قيل عنه عن عطاء، وقيل عنه: بلغني عن عطاء، وأرسل الأوزاعي آخره عن عطاء عن النبي ﷺ وهو الصواب، وصححه الشيخ ناصر رحمه الله دون زيادة: «**ويعصر أو يعصب** -شك موسىٰ- **علىٰ جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده**». وأخرجه البغوي في «شرح السُّنَّة» باب كيفية التيمم (ح٣١٣/ ٢).
قال الشوكاني رحمه الله في «**نيل الأوطار**» (٢/ ٩٥): الحديث رواه أيضًا ابن ماجه وصححه ابن السكن، وقد تفرد به الزبير بن خَريق وليس بالقوي، قاله الدارقطني وخالفه الأوزاعي، =

هذه تربيةُ نبيكمﷺ، فعلىٰ هذا النحو، وبهذا الأسلوبِ يُربِّي الرسولُﷺ الأمةَ، علىٰ العبادةِ المُصَفَّاةِ من بعد إزاحةِ الشَّوبِ والكَدَرِ جانبًا، ... يأتي بالعبادةِ المصَفَّاةِ، ثم يُربي عليها الأمةﷺ.

وانظر إليهﷺ وهو يُصَفِّي الأخلاقَ من كُدُراتِهَا، ويُنقِّي القلوبَ مما عَلَقَ بها.

انظر إليهﷺ وهو يمضي يَومًا في الطريق -كما يقول أبو مسعود البدري-[1]،

=

فرواه عن عطاء، عن ابن عباس وهو الصواب، قال الحافظ -هو ابن حجر-: رواه أبو داود أيضًا من حديث الأوزاعي قال: بلغني عن عطاء، عن ابن عباس. ورواه الحاكم عن بشر بن بكر، عن الأوزاعي، حدثني عطاء عن ابن عباس. وقال الدارقطني: اختلف فيه علىٰ الأوزاعي، والصواب أن الأوزاعي أرسل آخره عن عطاء، وقال أبو زرعة وأبو حاتم: لم يسمعه الأوزاعي من عطاء، إنما سمعه من إسماعيل بن مسلم عن عطاء. ونقل ابن السكن عن ابن أبي داود أن حديث الزبير بن خَريق أصح من حديث الأوزاعي، وقد رواه ابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم من حديث الوليد بن عبيد بن رباح، عن عمه عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس مرفوعًا، والوليد بن عبيد ضعفه الدارقطني، وقواه من صحح حديثه».

(١) عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري، أبو مسعود البدري، لم يشهد بدرًا علىٰ الصحيح، وإنما نزل ماء بدر، فشهر بذلك، وكان ممن شهد بيعة العقبة، وكان شابًّا من أقران جابر في السن روىٰ أحاديث كثيرة، وهو معدود في علماء الصحابة، نزل الكوفة، وقد استعمله علي أميرًا عليها لما حارب معاوية، مات أبو مسعود قبل الأربعين، وقال يحيىٰ القطان: مات أبو مسعود أيام قتل عليٌّ بالكوفة سنة (٤٠هـ).

راجع في ترجمته: «**سير أعلام النبلاء**» (٢/ ٤٩٤)، و«**التاريخ**» لابن معين (٤١٠)، «**الإصابة**» لابن حجر (٧/ ٢٤).

ولم يكن بدريًّا صَليبةً، وإنما كان مقيمًا ببدرٍ، فنُسب إليها ولم يشهدها-: كنتُ أضرب غُلامًا بالسَّوطِ فسمعتُ صَوتًا من خَلْفِي: «اعلَم أبَا مسعود»، فلم أفهم الصوتَ من الغضبِ، قال: فلما دَنَا منِّي، إذا هو رسولُ الله ﷺ، فإذا هو يقول: «**اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود**» قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: «**اعلَم، أبا مَسعُود أنَّ الله أَقدَرُ عليك منك علىٰ هذا الغُلامِ**». قَال: قلتُ: لا أضربُ مَملُوكًا بَعدَهُ أبدًا[1].

وفي رواية: فقلت: يا رسولَ الله، هُوَ حُرٌّ لوَجهِ الله، فقَال: «**أمَا إنك لو لم تفعل للَفَحَتك النَّارُ، أَو لَمَسَّتك النارُ**»[2].

فالرسول ﷺ يُربِّي علىٰ الأخلاقِ من بعد تصفيةِ الأخلاقِ، وهذا هو ﷺ يقوم بتصفية الأخلاق من كلِ ما عَلَق بِهَا، مِمَّا يَشُوبُها مِن أمر الجاهلية بأخلاقِها.

---

(١) أخرجه مسلم في «**صحيحه**» ٢٧- كتاب الأيمان ، ٨- باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (ح١٦٥٩/ ٣/ ١٢٨٠)، والبخاري في «**الأدب المفرد**» ٧٧- باب أدب الخادم (ح١٧١/ ٨٥)، وأبو داود في «**سننه**» ٣٦- كتاب الأدب، ١٣٣- باب في حق المملوك (ح ٥١٥٩/ ٤/ ٢١٩٤)، والترمذي في «**سننه**» ٢٨- كتاب البر والصلة، ٣٠- النهي عن ضرب الخدم وشتمهم (ح١٩٤٨/ ٤/ ٢٩٦)، والطبراني في «**الكبير**» فيما رواه يزيد بن شريك التيمي عن أبي مسعود (ح٦٨٣/ ١٧/ ٢٤٥)، جميعًا من طريق الأعمش، عن إبراهيم التيمي -هو يزيد بن شريك- عن أبيه شريك قال ... فذكره.

(٢) هذه رواية مسلم من طريق أبي معاوية: حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي مسعود ... فذكره.

وهذا بلالٌ رضي الله عنه[1] يقول فيه عُمر رضي الله عنه: «أبو بكر سيدُنَا وأعتَقَ سَيِّدَنا»[2]. يعني: بلالًا رضي الله عنه- وكان قَبلُ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وكان يُسام الخَسْفَ في صحراء مكة، وهو لا يَرِيمُ[3] عن قوله بكلمة التوحيد لله -جلَّ وعَلا- «أحَدٌ، أحَدٌ»، وكان صابرًا مُحتسبًا، فلما مر عليه الصدِّيقُ سَاوَمَ عنه سيدَه حتَّىٰ تملَّكه فأعتقه، فكان عُمر إذا ما رآه بَعدُ يقول: «**أبو بكر سيِّدُنا وأعتَقَ سَيِّدَنا**».

بـلالٌ الحبشي رضي الله عنه الذي أعلىٰ الله بالإسلامِ قَدْرَه، ورفع الله ربُّ العالمينَ بالإيمـان مَكانَته، وأحلَّ اللَّـه ربُّ العالمينَ فِي الفِردَوسِ الأعلىٰ بالإحسان مَنزِلَتَه رضي الله عنه.

(١) بلال بن رباح مولىٰ أبي بكر الصديق، وأمه حمامة، وهو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من السابقين الأولين الذين عُذِّبوا في الله، شهد بدرًا، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ التعيين بالجنة كان آدم، شديد الأدمة، نحيفًا، طوالًا، أجنأ، له شعر كثير، وخفيف العارضين، به شَمط كثير وكان رضي الله عنه ترب أبي بكر، توفي بلال سنة عشرين بدمشق، ودفن بباب الصغير وهو ابن بضع وستين سنة.
راجع في ترجمته: «**سير أعلام النبلاء**» (١/ ٣٤٧)، و«**حلية الأولياء**» (١/ ١٤٧)، و«**الإصابة**» (١/ ٢٧٣).

(٢) وجدت في معنىٰ هذه الكلمة ما ورد في «**سير أعلام النبلاء**» (١/ ٣٤) قال: عن قتيبة: حدثنا الليث، عن يحيىٰ بن سعيد قال: ذكر عمر فضل أبي بكر، فجعل يصف مناقبه، ثم قال: وهذا سيدنا بلال حسنة من حسناته.

(٣) قال ابن الأثير في «**النهاية**» (٢/ ٢٩٠): «يقال: رام يريم إذا برح وزال من مكانه، وأكثر ما يستعمل في النفي».

لمَّا دخَلَ النبيُّ ﷺ مكةَ فاتِحًا أمَرَ بلالًا أن يَصْعَدَ الكعبةَ، وأن يُؤذِّنَ عليها، فلما قال: «أشهدُ أن محمدًا رسولُ الله» قال صناديدُ قريش بعضهُم لبعضٍ: الآنَ طابَ الموتُ إذ يعلُو هذا الغرابُ الأسودُ هذه البِنيَّةَ -هذه الكعبةَ المشرفة- ثمَّ يتَفَّوهُ بمثل هذا الكلام.

بلالٌ عيَّره أبو ذرٍّ[1] يومًا -وهو عربيٌّ صَلِيبةً- فقال له مُعيِّرًا: «**يا بن السَّوداءِ**». فبلغ الأمرُ مَسَامِعَ رسولِ الله ﷺ، فصَفَّىٰ الأخلاقَ مما يَشُوبُها، ونَحَّىٰ عنها كَدُرَاتِها[2] ثم جعل الأمرَ مُرَبَّىٰ عليه تحت عينيه ﷺ.

إنَّهُ يُصفِّي ويُربي، عقيدةً، وسُلوكًا، ومنهجًا، وعبادةً، ومعاملةً، وخُلُقًا، بأبِي هُوَ وأمي ونفسي ﷺ.

فلما سَمِعَ ذلك قال: «**إنكَ امرؤٌ فيك جاهليةٌ**» قال: أوَ عَلَىٰ كِبرِ سني

(١) جُندُب بن جُنادة الغفاري، أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد ﷺ، كان خامس خمسة في الإسلام، ثم إنه رُدَّ إلىٰ بلاد قومه، فأقام بها بأمر النبي ﷺ له بذلك، كان آدم ضخمًا جسيمًا، كثَّ اللحية، كان رأسًا في الزهد، والصدق، والعلم، والعمل، قوَّالًا بالحق، لا تأخذه في الله لومةَ لائم، شهد فتح بيت المقدس مع عمر رضي الله عنه. مات في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين، وتولىٰ دفنه ابن مسعود رضي الله عنه. راجع في ترجمته «**سير أعلام النبلاء**» (٢/ ٤٦)، «**تاريخ الطبري**» (٤/ ٢٨٣)، «**حلية الأولياء**» (١/ ١٥٦)، «**شذرات الذهب**» (١/ ٢٤).

(٢) الكدَرُ: ضد الصفو، وبابه طرُب وسهلُ فهو كدِر، وكدْر، والأكْدر، هو الذي في لونه كُدْرة «**مختار الصحاح: كدر**».

يا رسولَ الله؟ قال: «**علَىٰ كِبَرِ سِنِّكَ إِنَّكَ امرؤٌ فيك جاهليةٌ**»[1].

مازال ذلك الخلطُ البئيسُ يَرُوح ويَجيءُ، فلابدَّ من استلالِه وإخراجِه من تَلافِيفِ رُوحِك، لابُدَّ من إخراجِه، ومن ثنايا عَقْلِكَ، ومن تَصَوُّرِكَ، حتىٰ تَصيرَ صِرفًا خالصًا، كالذَّهَبِ إذ يُعرَضُ علىٰ النارِ فتنةً، فيخرجُ ولا شيءَ يَشُوبُه أبدًا... «**فقالَ: أَوَ علَىٰ كِبرَ سِني يا رسولَ الله؟ قالَ: عَلَىٰ كِبَرِ سِنِّكَ**». فأقسم أبو ذرٍّ ﷺ -إذ يضع خَدَّه علىٰ الأرض- لَيَطَأَنَّ بلالٌ بِنَعلِهِ علىٰ خدِّه الآخر، وإلَّا فلن يرفعَ خدَّه من علىٰ الأرضِ حتىٰ يأذنَ الله -جلَّ وعَلا- وكان الأمرُ كما أرادَ.

يُصَفِّي نبيُّكمﷺ، ويُرَبِّي فِي آنٍ.

«لن ينزعه عنكم حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم».

---

(١) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٨١- كتاب الأدب، ٤٤- باب ما ينهىٰ من السباب واللعن (ح٥٧٠٣/ ٥/ ٢٢٤٨)، ومسلم في «**صحيحه**» ٢٧- كتاب الأيمان، ١٠- باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه (ح١٦٦١/ ٣/ ١٢٨٢)، والبغوي في «**شرح السُّنَّة**»، باب نفقة المماليك (ح٢٤٠٢/ ٩/ ٣٣٩)، جميعًا من طريق الأعمش، عن المعرُور بن سُوَيد، عن أبي ذر، قال: رأيت عليه بردًا، وعلىٰ غلامه بردًا، فقلت: لو أخذتُ هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيتهُ ثوبًا آخر، قال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلتُ منها، فذكرني إلىٰ النبيﷺ فقال لي: «**أسابَبتَ فلانًا؟**» قلت: نعم، قال: «**أفنِلْتَ من أمه؟**» قلت: نعم، قال: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**». قلت علىٰ حين ساعتي: هذه من كبرَ السن؟ قال: «**نَعَم، هم إخوانُكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليُطعِمه مما يأكل، وليلبِسه مما يلبَس، ولا يكلِّفُه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليُعِنه عليه**».

أمَّا دينُكم: فهو الدينُ المصفَّىٰ من غير ما كدُورةٍ، من غير ما لَحِقَ به في أمرِ العبادةِ من ذلك الذي التصقَ بالعبادةِ مما ليس منها، فضلًا عن العقيدة مما دخل عليها وليسَ منها، يتحرَّىٰ فيه الرسولﷺ الدقة تَحَرِّيًا عظيمًا، ﷺ.

وفي الصحيحين عن زيد بن خالد[1] رضي الله عنه قالَ: صلَّىٰ بِنَا رسولُ الله ﷺ الصُّبحَ بالحُديبية[2] فِي إثر السماءِ[3] كانت من الليلِ، فلما انصَرَفَ أقبَلَ علىٰ النَّاسِ فقالَ: «**هَل تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ ربُّكُم؟**» قالوا: الله ورسُولُهُ أعلَم، قالَ: «**أصبحَ من عبَادِي مُؤمِنٌ بي وكافرٌ، فأمَّا مَن قال: مُطِرنَا بِفَضْلِ الله ورحمتِهِ فذَلِكَ مُؤمِنٌ بي، كافرٌ بالكَوكَب، ومَن قَال: مُطِرنَا بِنَوءِ[4] كَذَا وكَذَا فذلك**

(١) زيد بن خالد الجهني، أبو عبد الرحمن المدني، كان صاحب لواء جهينة يوم الفتح، توفي بالمدينة سنة ثمان وسبعين وهو ابن خمس وثمانين سنة.

راجع في ترجمته «**تهذيب الكمال**» رقم (٢١٠٤/ ١٠/ ٦٣)، و«**التاريخ الكبير**» (٣/ رقم ٢١٨٢).

(٢) الحُدَيْبِيَة: في القاموس: الحُدَيبية كدُوَيْهِيَة -وقد تُشدَّد- بئر قرب مكة -حرسها الله تعالىٰ-، أو لشجرة حَدْباء كانت هناك، والتخفيف قول الشافعي وأهل اللغة، والتشديد قول ابن وهب وأكثر المحدثين.

(٣) في إثر السماء: هو إثر، وأثر، لغتان مشهورتان، أي: بعد المطر، والسماء: المطر.

(٤) بنَوء: قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ اللهُ: «النَّوء في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجم ينوء، أي: سقط وغاب، وقيل: أي: نهض وطلع.

والنَّوءُ للكواكب الثمانية والعشرين التي هي منازل القمر، يسقط منها في كلِّ ثلاث عشرة ليلة نجم منها في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله من المشرق من ساعته، =

كَافِرٌ بي، مؤمنٌ بالكَوكَب»[1].

انظر إلىٰ التصفية والتربية يأتي بها النبيُّ ﷺ في أمرِ العقيدةِ، وفي أدَقِّ دقائِقها، حتىٰ لا يتوهَّمَ أحدٌ أن فِعلًا من الأفعالِ التي لا يَقْدِرُ عليها إلا الله يمكنُ أن يأتيَ بِهَا غيرُ الله -جلَّ وعَلا- وانظر إلىٰ قَولِ رَبِّك يأتي به نبيُّه ﷺ في أمرِ غيبٍ لا يعلمه إلا الله -جلَّ وعَلا-: «**أتَدرُونَ مَاذَا قالَ ربُّكُم الليلة؟**»، الله ورسوله أعلم، قال: **قال ربُّكم -جلَّ وعَلا- أصبحَ من عبادي** -يعني: بعد الليلة

=

فيكون انقضاء السنة مع انقضاء هذه الثمانية والعشرين، وأصل النوء: هو النهوض، سمي نوءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق ينوء نوءًا، وذلك النهوض، وقد يكون النوء للسقوط، وكانت العرب تقول في الجاهلية: إذا سقط منها نجم، وطلع آخر، لابد من أن يكون عند ذلك مطر، فينسبون كلَّ غيث يكون عند ذلك إلىٰ النجم، فيقولون: «مطرنا بنوء كذا».

وهذا التغليظ فيمن يرىٰ ذلك من فِعل النجم، فأما من قال: مطرنا بنوء كذا، وأراد: سقانا الله تعالىٰ بفضله في هذا الوقت فهو جائز». راجع شرح السُّنَّة للبغوي (٤/ ٤٢٠).

(١) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ١٦- صفة الصلاة ، ٧٢- باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (ح٨١٠/ ١/ ٢٩٠)، ومسلم في «**صحيحه**» ١- كتاب الإيمان، ٣٢- باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (ح٧١/ ١/ ٨٣)، ومالك في «**الموطأ**» ١٣- كتاب الاستسقاء، ٣- باب الاستمطار بالنجوم (ح٤/ ١/ ١٩٢)، وأبو داود في «**سننه**» ٢٣- كتاب الكهانة والتطير ، ٢- باب في النجوم (ح٣٩٠٥/ ٤/ ١٦٨٠)، وأحمد (٤/ ١١٧)، والبيهقي في «**السنن**» (٢/ ١٨٥)، والبغوي في «**شرح السُّنَّة**»، باب كراهة الاستمطار بالأنواء (ح١١٦٩/ ٤/ ٤١٩)، جميعًا من طريق مالك بن أنس، عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن زيد بن خالد الجهني... فذكره.

التي كان فيها المطر، أصبح الناس علىٰ فريقين- **فأمَّا من قال: مُطِرنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي** -يقول ربك- **فذلك مؤمنٌ بي، كافرٌ بالكوكبِ، وأمَّا من قال: مُطِرنَا بِنَوءِ كذا وكذا** -أي: بأن الأمرَ لا يعود في المنتهىٰ علىٰ الله -جلَّ وعَلا- **فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**».

يُصحِّحُ النبيُّ ﷺ الأمرَ، ويأتي نبيُّكم ﷺ بوصفةِ العلاج، شافيةً كافيةً، مُحيطةً بَلْسَمًا، من غيرِ تطويل كلام، ولا تنظير، ولا تأسيسٍ، ولا تقعيدٍ، ولا شيء، وإنما يقولُ: «**يُسَلِّطُ الله عليكم ذُلًّا لا يَنْزِعُه عنكم حتَّىٰ تَرجِعُوا إلىٰ دِينكم**»... ما ديننا؟ هو الدينُ المصَفَّىٰ الذي جاءَ به الرسولُ ﷺ، من غير ما شَوبٍ، لا في العقيدةِ، ولا في العِبَادةِ، ولا في السلوكِ، ولا في المعاملةِ، ولا في الأخلاقِ، ولا في شيء، وإنما يأتي النبيُّ ﷺ بالخالصِ الصُّرَاحِ من عِندِ ربنا -جلَّ وعَلا-.

ثمَّ كيفَ نَرجعُ إلىٰ هذا الدينِ المصفَّىٰ؟ كيفَ نعودُ إلىٰ النَّبْعِ؟

بالتربية علىٰ ذلك، كما ربَّىٰ محمدٌ ﷺ أصحابه، ومن تَخَلَّفَ عنده واحدٌ من هَذَين فلن يصلَ إلىٰ شيء، وإذا ما تخلَّفت الأمةُ عن الدينِ المصَفَّىٰ، عن الدينِ الحقِّ، فكيف تتربَّىٰ علىٰ دينٍ حقٍّ وهي تجهلُه؟ وهو عندها في حكم المجهُولِ المعدوم؟

وإذن؛ فإذا لم تضع يَدَهَا علىٰ الدينِ المصَفَّىٰ في جميع جوانبه، فإن الذُلَّ لن يزالَ حَالًّا وواقعًا، ولن يُرفَعَ عنها حتىٰ تأتيَ بما أمرَ به الرسولُ ﷺ أن يُؤتَىٰ وتتربَّىٰ عليه، والتربيةُ أمرٌ شاقٌّ في الإنسانِ جدًّا.

نسألُ الله أن يبصِّرنا بحقائق دِينِنَا، وأن يهدينا إلىٰ سواءِ الصراط المستقيم، إنه علىٰ كلِّ شيءٍ قدير.

وصلىٰ الله وسلَّم علىٰ نبينا محمد ﷺ.



الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَهُ لا شَريكَ له، هو يتولىٰ الصالحينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولُه صلىٰ الله عليه وسلم صلاةً وسلامًا دائمين مُتلازِمينِ إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فإن التربيةَ علىٰ الدين المصَفَّىٰ؛ علىٰ الدينِ الحق؛ علىٰ ما جَاءَ به محمدٌ ﷺ أمرٌ يطول، ولا جَرَمَ، فمعلومٌ أن الطفولَة الإنسانيةَ هي أطولُ طفولة لحيوانٍ خُلِقَ قط، فلا يُوجدُ حيوانٌ يَلتصقُ بأبويه مدة سنين تقاربُ الطفولة الإنسانية التي لا يفارقُ الطفلُ والديه حتَّىٰ يَشُبَّ ويصيرَ ممن يمكن أن يُعتَمَد عليه، ويُعوَّلَ بالأمر مُفوَّضًا إليه، وإذن فلا يَستَهولنَّ أحدٌ طولَ الطريق، فكذلك شأنُ الدِّين.

وَهَذَا حَديثُ نبيكم ﷺ -الصحيح- عن عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه قال:

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن المكي المهاجِري البدري، حليف بني زهرة، كانَ من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدرًا، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك علىٰ النفل، ومناقبه غزيرة، وهو من الرواة المكثرين عن النبي ﷺ.

قال الذهبي: كان معدودًا في أذكياء العلماء. وكان نحيفًا، قصيرًا، شديد الأدمة، وكان لا يغير شيبه، قال ابن المسيب: رأيت ابن مسعود، عظيم البطن، أحمش الساقين. وكان ابن مسعود من أجود الناس ثوبًا أبيض، وأطيب الناس ريحًا، قال رسول الله ﷺ: «**رضيت لأمتي ما رضي لها ابنُ أم عبد**». وقال أبو موسىٰ: لا تسألوني عن شيء مادام هذا الحبر بين أظهركم. مات ابن مسعود بالمدينة ودفن بالبقيع سنة اثنتين وثلاثين. راجع في ترجمته «**سير أعلام النبلاء**» (١/ ٤٦١)، «**المعارف**» (٢٤٩)، «**أسد الغابة**» (٣/ ٣٨٤).

«خَطَّ رسولُ الله ﷺ لَنَا خَطًّا ثُمَّ قالَ: «**هذا سبيلُ الله**». ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عن يمينه، وعَن شِمَاله، وقالَ: «**هَذِه سُبُلٌ عَلَىٰ كُلِّ سَبيلٍ شَيطَانٌ يَدعُو إليها**» وقَرَأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣][1].

(١) **حديث حسن**: أخرجه الدارمي في «**سننه**» في المقدمة ٢٣- باب في كراهية أخذ الرأي (ح ٢٠٢/ ١/ ٧٨)، وابن أبي عاصم في «**السُّنَّة**»، ٥- فيما يجب أن يكون هوىٰ المرء تبعًا لما جاء به ﷺ (ح١٧/ ١٣)، والنسائي في «**الكبرىٰ**» ٨٢- كتاب التفسير، ١٤١- باب قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا﴾، (ح١١١٧٤/ ٦/ ٣٤٣)، وابن نصر المروزي في «**السُّنَّة**» (ح١٢/ ٤٦)، والآجُري في «**الشريعة**» ٢- باب ذكر أمر النبي ﷺ أمته بلزوم الجماعة وتحذيره إياهم الفرقة (ح١٢/ ١/ ٢٩٢)، والحاكم في «**المستدرك**» ٢٧- كتاب التفسير. ٦- تفسير سورة الأنعام (ح٣٢٤١/ ٢/ ٣٤)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في «**التلخيص**». واللالكائي في «**شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة**» سياق ما روي عن النبي ﷺ في الحث علىٰ التمسك بالكتاب والسُّنَّة (١/ ٩٣/ ١٤٣)، والبغوي في «**شرح السُّنَّة**» باب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة (١/ ٩٧/ ١٩٦)، وأحمد في «**المسند**» (١/ ٤٣٥- ٤٦٥)، وابن بطة في «**الإبانة الكبرىٰ**» (ح١٠٥/ ١٢٩)، جميعًا من طريق حماد بن زيد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود... به.

والآجري في «**الشريعة**»، ٢- باب ذكر أمر النبي ﷺ أمته بلزوم الجماعة وتحذيره إياهم الفرقة (ح١١/ ١/ ٢٩٠)، وابن نصر المروزي في «**السُّنَّة**» (١٣/ ٤٦) من طريق أبي هشام الرفاعي، والنسائي في «**الكبرىٰ**» ٨٢- كتاب التفسير، ١٤١- باب قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا﴾ (ح١١١٧٥/ ٦/ ٣٤٣) من طريق أحمد بن يونس، والحاكم في «**المستدرك**» ٢٧- كتاب التفسير، ٦٠- تفسير سورة الأعراف (ح٣٢٤١/ ٢/ ٣٤٩)، من طريق أحمد بن عبد الجبار، وأحمد في «**المسند**» (١/ ٤٣٥)، وابن الجوزي في «**تلبيس**
=

هذا رسولُكم ﷺ، تعليمًا وإرشادًا، وعملًا بتربية عمليةٍ منظورة مُشاهدة، يَخُطُّ علىٰ الأرض خَطًّا مُستقيمًا طويلًا، فلا يَستَهوِلَنَّ أحدٌ طولَ الطريقِ، فإن نتيجته مضمونةٌ بإذن الله -جلَّ وعَلا-.

إيمانٌ حقٌّ وعبادةٌ مُنضبطةٌ، ومعاملةٌ صحيحةٌ، وأخلاقٌ سويةٌ، كلُّ ذلك

=

إبليس» (ح٨/ ١/ ٣٠) من طريق أسود بن عامر.

جميعهم من طريق أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود ... فذكره.

وخلاصة القول: أنه روي من طريقين عن ابن مسعود، وهو حديث صحيح كما قال الشيخ أحمد شاكر في تخريجه «**للمسند**» (٦/ ٨٩)، والألباني في «**ظلال الجنة**» (١/ ١٣).

وللحديث شاهد صحيح من حديث جابر بن عبد الله: أخرجه ابن ماجه في «**سننه**» في المقدمة ١-باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (ح٣/ ١/ ٤)، ومحمد بن نصر المروزي في «**السُّنَّة**» (ح١٤/ ٤٧)، وابن أبي عاصم في «**السُّنَّة**» ٥- باب ما يجب أن يكون هوىٰ المرء تبعًا لما جاء به النبي ﷺ (ح١٦/ ١/ ١٣)، وقال الشيخ ناصر في «**ظلال الجنة**»: «إسناده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد، لكنه توبع بحديث ابن مسعود، فالحديث صحيح».

والآجُري في «**الشريعة**» ٢- باب ذكر أمر النبي ﷺ أمته بلزوم الجماعة وتحذيره إياهم الفرقة (ح١٣/ ١/ ٢٩٣)، واللالكائي في «**شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة**»، سياق ما رويَ عن النبي ﷺ في الحثِّ علىٰ التمسك بالكتاب والسُّنَّة (ح٩٥/ ١/ ١٤٤)، وأحمد في «**المسند**» (٣/ ٣٩٧)، وعَبد بن حميد في «**المنتخب**» (١١٤١)، وابن مردويه والبزار كما قال ابن كثير (٦/ ٢٢٠).

وفي الجملة: فالحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

قلت: ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الاعتقاد إلا وتجده فيه لأهميته وعلو قدره.

دينٌ مُصَفَّىٰ، ثم تربيةٌ علىٰ هذا المنهج كما صَنَعَ محمدٌﷺ.

وقُل لي بربك: ماذا صنع الرسولُﷺ في مكةَ لمدة ثلاثَ عشرَةَ سنةً؟

كانَ يُربِّي علىٰ هذا الدين المصَفَّىٰ بما جاءه من عِندِ ربِّه -جلَّ وعَلا- ولم تُفرض الصلاةُ علىٰ وجهِها المعلومِ لنا إلا في السنة العاشرةِ من البعثةِ، وقبل الهجرةِ بثلاثةِ أعوامٍ، علىٰ أرجح الأقوال[1] ولم يُفرَض في مكةَ صيامٌ ولا قِتالٌ،

(١) أخرج مسلم في «**صحيحه**» من طريق شيبان بن فرُّوخ، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البُناني عن أنس بن مالك، أن رسول اللهﷺ قال: «**أُتيتُ بالبُراق** -وهو دابةٌ أبيضُ طويلٌ، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهىٰ طرفه- قال: **فركبته حتىٰ أتيت بيت المقدس**، قال: **فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء**، قال: **ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل** عليه السلام **بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل** عليه السلام**: اخترتَ الفطرة، ثم عرج بنا إلىٰ السماء**». الحديث بطوله، وفيه: «**فأوحىٰ الله إليَّ ما أوحىٰ، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلتُ إلىٰ موسىٰ**ﷺ **فقال: ما فرض ربك علىٰ أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوتُ بني إسرائيل وخَبَرتُهم. قال: فرجعتُ إلىٰ ربي، فقلت: يا رب، خفف علىٰ أمتي، فحطَّ عنِّي خمسًا، فرجعت إلىٰ موسىٰ فقلت: حَطَّ عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ- وبين موسىٰ** عليه السلام **حتىٰ قال: يا محمد: إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب شيئًا، فإن عملها كُتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتىٰ انتهيت إلىٰ موسىٰ**ﷺ **فأخبرته فقال: ارجع إلىٰ ربك فاسأله التخفيف**، فقال رسول اللهﷺ: **فقلت: قد رجعت إلىٰ ربي حتىٰ استحييت منه**».

ففي هذا الحديث دليل علىٰ أن الصلاة لم تفرض إلا في حادث الإسراء والمعراج.

ولا زكاةٌ، ولا شيءٌ من تلك الأمورِ، بل كانوا مَأمورينَ بكف الأيدي -رضي الله عنهم أجمعين-.

تربيةٌ طويلةٌ في محَضنِ النبوةِ، وفي حِجر الرسالة، حتىٰ إذا ما استتبَّ الأمرُ في المدينة انساحُوا في الأرضِ كالنورِ الهادِي، حتىٰ حَدَث حدثٌ لم يحدث في تاريخِ البشريةِ كلِّهَا من قَبلُ أبدًا، ودخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجًا.

فالنبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ العظيم الذي رواه ابنُ عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: إن فعلتم وفعلتم، ووقع منكم، وأتىٰ منكم، من أخلاقِكم ومعاملاتِكم، فإن الله سيُسلِّط عليكم ذُلًّا، -وهي من علاماتِ النبوةِ للنبي ﷺ- «**لا ينزِعه عنكم حتَّىٰ ترجِعُوا إلىٰ دِينكُم**»؛ إلىٰ الدين المصفَّىٰ إلىٰ النَّبعِ، إلىٰ ما كان عليه النبيُّ ﷺ، إذ هُمُ الذين تَلَقَّوا الوَحيَ مُشَافَهَةً، وهُمُ الذين رَأَوا وقائعَ الأحوالِ بتنزلات وحي الله ربِّ العالمينَ علىٰ قلبِ رسولِه، هُمُ الذين عايشُوا النبيَّ ﷺ، وصنع الله بهم الأحداثَ، وهم أصحابُ التُّقَىٰ والنُّهَىٰ، والذين عَدَّلَهم الله ربُّ العالمين. فهم عُدُولٌ جملةً وتَفصيلًا، والذي يَقدحُ فيهم فإنه يكون خارجَ الإطار، هؤلاء الأصحابُ أصحابُ اللغةِ الذين كانت اللغةُ عندهم سَلِيقةً، يفهمون مُرادَ الله ربِّ العالمين، ويفهمون مرادَ النبيِّ الأمينِ ﷺ.

وَقَد أَخرَجَ الترمِذِي فِي جَامعه عَن عبد الله بن عَمرو رضي الله عنهما قَالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ليأتينَّ عَلَىٰ أُمتي ما أتىٰ علَىٰ بَني إسرائيل، حَذوَ النَّعلِ بالنَّعْلِ حَتَّىٰ إن كانَ منهم مَن أَتىٰ أُمَّه عَلانيةً لَكَانَ في أُمَّتي مَن يَصنَعُ ذلك، وإنَّ بَنِي إسرائيلَ تَفَرَّقَت علىٰ ثنتين وسبعين مِلَّة، وتفترقُ أُمَّتي علىٰ ثَلاثٍ وسَبعينَ**

مِلَّةً، كُلُّهم فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً واحِدَة، قَالُوا: وَمَن هيَ يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيهِ وأصحابي»[1].

(١) **حديث حسن**: أخرجه الترمذي في «**سننه**» ٤١- كتاب الإيمان، ١٨- باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (ح٢٦٤١/ ٥/ ٢٦)، وقال: هذا حديث غريب، لا يُعرف مثل هذا إلا من هذا الوجه.

والحاكم في «**المستدرك**» ٢- كتاب العلم (ح٤٤٤/ ١/ ٢١٨)، وقال الذهبي: رواه ثابت ابن محمد العابد، عن الثوري، عن ابن أبي أنعم الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد عنه.

واللالكائي في «**شرح أصول اعتقاد أهل السنة**» سياق ما روي عن النبي في الحثِّ على اتباع الجماعة، والسواد الأعظم (ح١٤٦، ١٤٧/ ١/ ١٦٨)، وقد علق محقق الكتاب على قول اللالكائي -رحمه الله تعالىٰ-: وفي حديث ثابت، فقال: ولا أدري من المقصود بثابت؟ هل هو ابن أسلم أم غيره، فإنه لم يتقدم له ذكر.

وأقول له -بعون الله تعالىٰ-: لو امتدت يدك إلىٰ «**مستدرك الحاكم**» (١/ ٢١٨/ ح٤٤٤)، «**والشريعة**» للآجري وقد عزوت الحديث إليها، ونظرت في إسناد هذا الحديث لعلمتَ أنه ثابت بن محمد العابد.

قال ابن حجر في «**التقريب**» (ت٨٢٩/ ١٣٣): هو ثابت بن محمد العابد، أبو محمد ويقال: أبو إسماعيل صدوق زاهد يخطئ في أحاديث، من التاسعة، مات سنة خمس عشرة ومئتين، أخرج له البخاري والترمذي.

وأخرجه ابن نصر المروزي في «**السُّنَّة**» (٦٠/ ٧٩)، والآجري في «**الشريعة**» ٣- باب ذكر افتراق الأمم في دينهم وعلىٰ كم تفترق هذه الأمة (٢٣، ٢٤/ ١/ ٣٠٧)، وابن وضاح في «**النهي عن البدع**» (ص١٦٧/ ح٢٤٨)، وابن بطة في «**الإبانة**» (ح١/ ١/ ١٦٦)، والعقيلي في «**الضعفاء**» (٢/ ٢٦٢)، جميعًا من طُرق عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو... به.

=

فمن أرادَ النجاةَ فدُونَه، فالأمرُ واضحٌ لا لَبْسَ فيه ولا غَبَش، وأما أن يأخذَ المرءُ علىٰ علّاتِهِ؛ وأما أن يأخذَ ببُنَياتِ الطريق فعندك حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**وهذه سُبُلٌ علىٰ رأسِ كلٍّ منها شيطانٌ يدعو إليه**». وهي سُبُلٌ قصيرة، يبلغُ البالغُ منها مُنتهَاهَا، ربما في قفزة واحدة، ثم ينتهي الأمرُ حالًا ومآلًا بسوءِ مصيرٍ -والعياذ بالله العلي الكبير-.

وأمَّا صراطُ الله فمستقيمٌ بطوله إلىٰ الغاية والمنتهىٰ. أن تأخذ الأمرَ علىٰ علّاتِهِ من غير ما تصفيةٍ فأمرٌ لا يمكن أن تصلَ به الأمةُ إلىٰ حالٍ أبدًا؛ إذ عَلَقَت الكُدُوراتُ والشوائبُ بالعقيدةِ وعَلَقَت بالعبادة، وعَلَقَتْ بالأخلاقِ والمعاملاتِ والسُّلوكِ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وانظر فِي كتب التفسير كـ «**زاد المسير**» لابن الجوزي[1]، و«**الكشّاف**» للزَّمَخْشَري[2]، وكتاب «**الفتح الكبير**» للرازي[3]، وكذلك «**الدر المنثور**»

=

ولأصل الحديث شاهد عن أبي سعيد الخدري: أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٩٩- كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنة، ١٤- باب قول النبي ﷺ: «**لتتبعن سَنن من كان قبلكم**» (ح٦٨٨٩/ ٦/ ٢٦٦٩)، ومسلم في «**صحيحه**» ٤٧- كتاب العلم، ٣- باب في اتباع سنن اليهود والنصارىٰ (ح٢٦٦٩/ ٤/ ٢٠٥٤).

وأما ذكر الافتراق فثابت في أحاديث كثيرة عن أنس بن مالك وأبي هريرة، وسعد بن أبي وقاص، وعوف بن مالك رضي الله عنهم.

(١) راجع: «**زاد المسير**» لابن الجوزي (٣/ ٤٧٢).

(٢) راجع: «**الكشاف**» للزمخشري (٢/ ٢٠٣).

(٣) راجع: «**مفاتيح الغيب**» للرازي (١٦/ ١٣٠).

للسُّيُوطي[1]، والخازنِ[2] وأبي السُّعُودِ[3] ... في كل هذه التفاسير وغيرها تجد عند قول الله -جلَّ وعَلا-: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:٧٥-٧٨] إلىٰ آخر الآيات في القصة.

يقول هؤلاء المفسرون جميعًا، ممن ذكرتُ وممن لم أذكر -حتىٰ إنه للأسف ذكرها ابنُ كثير[4] في تفسيره -رحمة الله عليه وعفوه- يقولون: نزلت في ثَعْلَبَة بن حَاطِب[5]، وهو صحابيٌّ جليلٌ بدريٌّ، وهذا الذي ذُكر في هذه

(١) راجع: «**الدر المنثور**» للسيوطي (٣/ ٢٦٠).

(٢) راجع: «**تفسير الخازن**» (٣/ ٣١٢).

(٣) راجع: «**إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم**» لأبي السعود العمادي الحنفي (٤/ ٨٥).

(٤) راجع: «**تفسير ابن كثير**»، أبو الفداء ابن كثير الشافعي (٧/ ٢٤٤).

(٥) ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن مالك بن الأوس الأنصاري، ذكره موسىٰ بن عقبة، وابن إسحاق في البدريين، وكذا ذكره ابن الكلبي، وزاد أنه قُتِلَ بأحد.

ومن أجل أن يخرج الشيخ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ من الإشكال الواقع بين رمي صحابي شهد بدرًا بالنفاق زعم أن هناك آخر يسمىٰ ثعلبة بن حاطب أو ابن أبي حاطب... ذكره ابن إسحاق فيمن بنىٰ مسجد الضرار، وذكر القصة.. ثم قال: وفي كون صاحب هذه القصة، إن صح الخبر ولا أظنه يصح، هو البدري المذكور قبله نظر. وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبي: إن البدري استشهد بأحد.

ويُقوي ذلك أيضًا أن ابن مردويه روىٰ في «**تفسيره**» من طريق عطية عن ابن عباس في الآية =

الآيات مختومٌ علىٰ قَلبِهِ بالنفاق: ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ ﴾ [التوبة:٧٧]، فهذا المختومُ علىٰ قلبهِ بالنفاقِ كيف يكونُ هو البدريُّ الذي كان قد شَهِدَ بدرًا مع الرسولِ ﷺ؟!

وعلماء الحديث الأثبات -رضوان الله عليهم- فنَّدوا القصةَ تفنيدًا نَسَفَهَا من جذورها، فلم يُبقِ منها شيئًا، ولم يَبْقَ منها شيءٌ، وثعلبة بن حاطب ﵁ بريءٌ من ذلك.

وقُل لي بربك، يعلو الخطباءُ المنابرَ، ثم يجلس المحاضرونَ في قاعاتِ الدرس والوعاظ يَتَشدقُونَ مُهرِفينَ بما لا يَعرفُونَ في قصة ثعلبةَ بن حاطبٍ الصحابيِّ البدريِّ، وهو بريءٌ من ذلك، ودينُ الله رب العالمين بريءٌ مما يقولون[1].

=

المذكورة قال: وذلك أن رجلًا يقال له ثعلبة بن أبي حاطب، من الأنصار أتىٰ مجلسًا فأشهدهم، فقال: لئن آتاني الله من فضله.. فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبي حاطب، والبدري اتفقوا علىٰ أنه ثعلبة بن حاطب، وقد ثبت أن النبيﷺ قال: «**لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية**». وحكىٰ عن ربه أنه قال لأهل بدر: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**». فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه وينزل فيه ما نزل؟ فالظاهر غيره -والله أعلم- راجع «**الإصابة**» لابن حجر ﵀، ترجمة رقم (٩٢٨-٩٢٩/ ١/ ٥٧٤).

(١) راجع: رسالة بعنوان: «**ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترىٰ عليه**»، تأليف سماحة الشيخ الوالد أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان، قرأها وعلق عليها وخرَّج أحاديثها أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد رسلان.

لابد من تصفيةِ هذه الأمور جميعها حتىٰ في الفقهِ، فهذا رجلٌ من علمائهم -كما في «**مراقي الفلاح**»، من فقه الحنفية عفا الله عنهم- سُئِلَ فكتب في «**مراقي الفلاح**»[1] -ومن شاء أن يعود إليه فليعد- كَتَبَ ماذا؟ كتَبَ : «إنه إذا وقعت دابةٌ في ماءٍ، فانتفخت فيه، فعُجِنَ بهذا الماءِ، فإن الدقيقَ المعجونَ تُعْلَفُ به المواشي، أو يُطْعَمُ به الكلابُ، أو يباعُ لشافعي».

وإن شئتَ أن تعودَ إلىٰ ما ذكره «ياقوت» في كتابه «**البلدان**» عما كان بأصبهان، مما وقع بين الشافعية والحنفية، كلما غلبت أمةٌ علىٰ أختها خرَّبت ديارَها وأخذت أموالَها وكان خرابٌ عظيمٌ، ارجع لكتاب «ياقوت»[2]، وستجد صدقَ ما أقولُ.

فلابُدَّ من تصفيةِ هذه الأمور في هذا الفقهِ، التراثِ العظيم لأمةٍ جليلةٍ مرحومة، وقس علىٰ ذلك، وخُذ أمثلة كثيرة.

وأما دينُ محمدٍ ﷺ فتصفيةٌ للاعتقادِ والمعاملةِ والعبادةِ والأخلاقِ والسلوكِ، ثم تربيةٌ علىٰ هذا الأمرِ.

واعلم أنَّ هذا الفارقَ هو الذي كان به الصحابةُ سابقين، وهو الفارقُ بيننا وبين أصحاب النبيِّ الأمينﷺ، عندهم دينٌ مُصَفًّىٰ وعملٌ قائمٌ مباشر.

فهذا ابن مسعودٍ رضي الله عنه كما أخرج الطبريُّ رَحِمَهُ اللهُ بإسناد صحيح عنه فِي

(١) راجع: «**مراقي الفلاح**» للشرنبلالي(ص٢١).

(٢) راجع: «**معجم البلدان**» لياقوت الحموي (١/ ٢٠٩).

«**تفسيره**» عن عبد الله بن مسعودٍ قال: «كان الرجلُ مِنَّا إذَا تعَلَّمَ عَشرَ آياتٍ لم يُجَاوزهُنَّ حَتَّىٰ يَعرِفَ معَانِيهنَّ والعَمَلَ بِهنَّ»[1].

وهذا ابنُ عمر[2] رضي الله عنهما يقولُ: «أُوتينا الإيمان قبل القرآنِ، ثم أوتينا القرآن فازددنا إيمانًا، ثم جاء قومٌ أُوتوا القرآنُ قبل الإيمانِ، فهم لا يدرون جَيِّدَه من رَدِيئهِ، يَنثُرُونه، نَثْرَ الدَّقَل[3]»[4].

(١) أخرجه الطبري في «**تفسيره**»، في ذكر الأخبار التي رويت في الحض علىٰ العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة (٨١/ ١/ ٨٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: «هذا إسناد صحيح، وهو موقوف علىٰ ابن مسعود، ولكنه مرفوع معنًىٰ؛ لأن ابن مسعود إنما تعلم القرآن من رسول الله ﷺ، فهو يحكي ما كان في العهد النبوي المنير». وأخرجه ابن كثير في «**تفسيره**» في المقدمة (١/ ٨).

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل، أبو عبد الرحمن القرشي العدوي المكي ثم المدني، الإمام القدوة شيخ الإسلام، أسلم وهو صغير، ثم هاجر مع أبيه، ولم يحتلم بعد، واستصغر يوم أحد، فأول غزواته الخندق، وهو ممن بايع تحت الشجرة، وأُمُّه -هو وأخته حفصة أم المؤمنين- هي: زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون.

وكان شعره يضرب منكبيه، وكان ربعة يخضب بالصفرة، وقد شهد ابن عمر فتح مصر، واختط بها، وحدَّث عنه أربعون نفسًا من أهلها، وقد عُرِض هو والبراء بن عازب علىٰ النبي ﷺ يوم بدر فلم يجزهما، وعرض ابن عمر رضي الله عنهما عليه ﷺ يوم أحد فلم يجزه وأجازه يوم الخندق، مات ابن عمر سنة ثلاث وسبعين. وقد بلغ من العمر سبعًا وثمانين سنة، ودفن بذي طُوىٰ.

راجع في ترجمته «**سير أعلام النبلاء**» (ت٤٥/ ٣/ ٢٠٣)، «**والزهد**» (١٨٩)، «**والحلية**» (١/ ٢٩٢).

(٣) الدَّقَل: هو رديء التمر ويابسه، واحدته «**دَقَلَة**» وله اسمٌ خاص فتراه ليُبسه ورداءته لا يجتمع، ويكون منثورًا. «**لسان العرب**» دقل.

(٤) روىٰ البيهقي في «**القضاء والقدر**» (١/ ٣٥٦)، رقم (٣٣٧)، من طريق سفيان عن إسماعيل بن =

وحقًّا ما قال ﷺ، وعلىٰ أبيه، وأمه -رضي الله عنهم أجمعين- ... جاءَ قومٌ يقرءون القرآن أُوتوه قبل الإيمانِ، لا حقيقةَ للإيمانِ في القلوبِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «**يتلونَ كِتَابَ الله رطبًا لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهم، يمَرُقُونَ من الدِّينِ كَمَا يمرُقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّةِ**»[1].

=

أبي خالد، عن أبي السَّفر قال: قال حذيفة ﷺ: إنَّا قومٌ أوتينا الإيمان قبل أن نُؤتَىٰ القرآن، وإنكم أوتيتم القرآن قبل أن تُؤتَوا الإيمان.

(١) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٦٧- كتاب المغازي، ٥٨- باب بعث علي بن أبي طالب ﷺ وخالد بن الوليد ﷺ إلىٰ اليمن قبل حجة الوداع (ح٤٠٩٤/ ٤/ ١٥٨١)، ومسلم في «**صحيحه**» ١٢- كتاب الزكاة ، ٤٧- باب ذكر الخوارج وصفاتهم (ح١٠٦٤/ ٢/ ٧٤٠)، وأبو داود في «**سننه**» ٣٥- كتاب السُّنَّة، ٣١- باب في قتال الخوارج (ح٤٧٠٦٣/ ٤/ ٢٠٣٥)، جميعًا من طريق عبد الرحمن بن أبي نُعم قال: سمعت أبا سعيد الخدري ﷺ يقول: بعث علي بن أبي طالب إلىٰ رسول الله ﷺ من اليمن، بذهبية في أديم مقروظ، لم تُحَصَّل من تُرابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عُيينة بن حصنٍ، والأقرع بن حابسٍ، وزيد بن الخيل، والرابع إما علقمة بن عُلاثَة، وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنا أحق بهذا من هؤلاء، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً؟!**» قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله، اتَّق الله، فقال: «**ويلك! أَوَلستُ أحقَّ أهل الأرض أن يتقي الله؟!**»، قال: ثم وَلَّىٰ الرجل، فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**». قال خالد بن الوليد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أُؤمر أن أنقِّب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم**»، قال: ثم نظر إليه وهو مُقَفٍّ فقال: «**إنه يخرج**

=

وأخرج الطبري بإسناد صحيح عن أبي عبد الرحمن السُّلمي[1] قال: «حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا أنهم كانوا يَستقرِئونَ من النبيﷺ، فكانوا إذا تعلموا عَشْرَ آياتٍ لم يَخلُفُوها حتىٰ يعملوا بما فِيهَا من العملِ، فتعلَّمْنَا العِلمَ والعَمَلَ جَميعًا»[2].

وأما اليوم فحدِّث عن الفوضىٰ ولا حرج؛ لأن منهاج النبيِّ في الخروج من الذلِّ لا يلتفت إليه أحدٌ، يُصَفُّون ولا يتَرَبُّونَ، فسُوءُ أدبٍ قائمٌ يصُدُّ الناسَ عن دينِ الله ربِّ العالمينَ، ويُقطِّعُ الأواصِرَ ويمزِّق الصِلاتِ، بسوءِ أدبٍ عجيب، يكاد يُشابهُ فيه الرجلُ أهل الكتابِ؛ لأن اليهودَ قد بُنَيت معاملاتُهم

=

من ضِئضِئِ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهمُ من الرمية»، قال: أظنه قال: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**».

(١) أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، السُّلمي، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبيﷺ، قرأ القرآن وجوَّده، ومهر فيه، وعرض علىٰ عثمان، وعلي، وابن مسعود، وكان أبو عبد الرحمن يُقرئ الناس في المسجد الأعظم أربعين سنة، قال إسماعيل بن أبي خالد: كان أبو عبد الرحمن السُّلمي يعلمنا القرآن خمس آيات، خمس آيات. تُوفي سنة أربع وسبعين. راجع في ترجمته «**سير أعلام النبلاء**» (٤/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه الطبري في «**تفسيره**»، في ذكر الأخبار التي رويت في الحض علىٰ العلم لتفسير القرآن، ومن كان يفسره من الصحابة (٨٢/ ١/ ٨٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا إسناد صحيح متصل، وأبو عبد الرحمن -هو السلمي- واسمه عبد الله بن حبيب، وهو من كبار التابعين، وقد صرح بأنه حدثه الذين كانوا يُقرئونه، وأنهم كانوا يستقرئون من النبيﷺ فهم الصحابة، وإبهام الصحابي لا يضر، بل يكون حديثه مسندًا متصلًا» اهـ

علىٰ الأَثَرَة، لا علىٰ الإيثار، والقومُ اليومَ حركةُ حياتِهم علىٰ الجمع والتحصيل؛ علىٰ جمعِ الدنيا ومَنعِها علىٰ الأَثَرَةِ، لا علىٰ الإيثار، فأشبَهُوا أخلاقَ هؤلاءِ حَذوَ النَّعْل بالنعلِ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما نبيكم ﷺ فيُصفِّي ويُرَبِّي فِي آنٍ معًا.

تقول عائشة[1] رضي الله عنها للرسول ﷺ يومًا: «حَسبُكَ مِن صَفيَّةَ أنَّها كذا، وأشارت بيدها -تعني: قصيرة- فقال: بئسَ ما قلتِ». يقول النبي ﷺ: «**لقد قُلتِ كلمةً لَو مُزِجَتْ بماءِ البحرِ لَمَزجَتْه**»[2]. يعني: هذه كلمة من أمرِ الغيبة، لا ينبغي

(١) عائشة بنت أبي بكر عبد الله بن أبي قُحافة، القرشية التيمية المكية، أم المؤمنين زوجة النبي ﷺ، أفقه نساء الأمة علىٰ الإطلاق، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، هاجر بعائشة أبواها، وتزوجها نبي الله قبل مهاجره بعد وفاة الصديقة خديجة بنت خويلد، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، ودخل بها في شوال سنة اثنتين، منصرفه عليه السلام من غزوة بدر، وهي ابنة تسع، روت عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا مباركًا فيه، وماتت في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان، بعد الوتر، وأمرت أن تدفن مباشرة، وكان عمرها يوم ماتت ثلاثًا وستين سنة.

راجع في ترجمتها: «**سير أعلام النبلاء**» (٢/ ١٩٢)، «**وحلية الأولياء**» (٢/ ٤٣)، «**شذرات الذهب**» (١/ ٩)، «**البداية والنهاية**» (٨/ ٩١).

(٢) أخرجه النسائي ٤٢- كتاب الأدب، ٤٠- باب في الغيبة (٢/ ٦٨٥)، رقم (٤٨٧٥)، قال: حدثنا مسدَّد، حدثنا يحيىٰ، عن سفيان قال: حدثني علي بن الأقمر، عن أبي حذيفة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال غير مسدد: تعني قصيرة، فقال: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**»، قالت: وحكيتُ له إنسانًا، =

أن يَسْكُتَ عليها سَامِعُها، إذا قالها قائلُها، وإلا فالسامعُ مُشارِكٌ للقائل في الإثم والوِزرِ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هؤلاء أصحابُ النبيِّ ﷺ هَذَّبَهم، صفَّىٰ اعتقادَهم وعبادتهم ومعاملَتهم وأخلاقَهم، ورباهم علىٰ الدين المصَفَّىٰ فكانوا خيرَ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ -رضوان الله عليهم أجمعين-.

ونبيكم علَّم الصحابةَ وعلَّموا، وأضربُ لك مثالًا واحدًا ذكره ابنُ السبكي[1]

=

قال: «**ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا**»، وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٢/ رقم ٤٨٧٥)، وفي «**صحيح الترغيب والترهيب**» (٣/ ٥٠/ رقم ٢٨٣٤)، «**وصحيح وضعيف الجامع الصغير**» (١٩/ ٤١٨/ رقم ٩٢٧١).

(١) الإمام تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، ابن الإمام تقي الدين علي، ابن عبد الكافي، السُّبكي الشافعي، المصري، الدمشقي، الفقيه الأصولي، المحدث، المؤرِّخ، الأديب، اللغوي، قاضي الشام في عصره، ولد بمصر سنة ٧٢٧هـ، وتعلم علىٰ يد والده تقي الدين، وجدَّ في تحصيل العلوم، فلمع نجمه في مقتبل شبابه وبرز علىٰ أقرانه، وأخذ عن أكابر علماء عصره من المحدثين والفقهاء والأصوليين وعلماء العربية، كالحافظ المزي، والذهبي، وابن النقيب، وصلاح الدين الصفدي، وكان ذا بديهة نادرة وبلاغة فائقة، وطلاقة لسان، وذهن وقَّاد ألف كتبًا كثيرة، أشهرها: «**جمع الجوامع**» في أصول الفقه، «**وطبقات الشافعية الكبرىٰ**»، «**ومعيد النعم ومبيد النقم**»، وقد تولَّىٰ التدريس في أشهر مدارس دمشق، ومشيخة دار الحديث، وخطابة الجامع الأموي فيها، وتولي قضاء القضاة في الشام، وقام بالتدريس في عدد من مدارس ومساجد القاهرة، وتوفي بدمشق سنة ٧٧١هـ.

راجع ترجمته في «**الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**» لابن حجر (ج١/ ص٣٣٣).

في «**الطبقات الكبرىٰ**» عن أبيه قال: كنتُ يومًا جالسًا علىٰ باب دارِنا، وكان أبي تقي الدين السبكي[1] في دِهليز البيت داخلًا، قال: فمرَّ وأنا جالسٌ علىٰ الباب كلبٌ -أعزكم الله جلَّ وعَلا- فقلت -أي قال: ابن السبكي-: أنه قال للكلب -أعزكم الله-: مهَ كَلبُ ابنُ كَلب. قال: فسمعَها أبي. فقال: ما تقولُ؟ قلتُ: يا أبي إنما أقولُها لكلبٍ ضالٍّ في الطريقِ، فقال: «إن ذلكَ لا ينبغي أن يُقالَ إلا علىٰ سبيل عدَمِ الانتقاص» ... رحمة الله عليه.

وأما إذا ما قيل بعزة النفس، وسُمُو الروح والكبر، والنظرة الفوقية للعالم، كأن المرء ينظرُ إلىٰ الذُّبَاب، وكأنَّ المرءَ مُشرفٌ من عَليَاءِ السحابِ علىٰ أقوامٍ كالجرادِ، كالحشرات في الأرضِ، فهذا لِكبرٍ في القلب، ولا يمكن بحالٍ أن يأتي من أمثال هؤلاء شيء.

(١) علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام... الشيخ الإمام العلامة، تقي الدين، أبو الحسن، السبكي الأنصاري، الخزرجي، المصري، الشافعي، وهو والد تاج الدين عبد الوهاب السبكي، محدث، مفسر، فقيه، أصولي، مقرئ، لغوي، أديب، محقق، مولده سنة (٦٨٣هـ)، قرأ علىٰ كبار العلماء في كل فن، أمثال ابن الرفعة، وشرف الدين الدمياطي، والباجي، وابن جماعة، وابن القيم، ورحل إلىٰ الحجاز والإسكندرية في طلب العلم، وتولىٰ العديد من الوظائف الدينية، كالقضاء والخطابة والتدريس، وله مصنفات كثيرة منها: «**الدر النظيم في تفسير القرآن العظيم**»، و«**الابتهاج في شرح المنهاج**» لم يكمله، وأكثر مؤلفاته رسائل في موضوعات شتىٰ، وجمع له ولده تاج الدين فتاويه في أربعة مجلدات، وتوفي سنة (٧٥٦هـ).
راجع ترجمته في: «**الوافي بالوفيات**» للصفدي (٦/ ٤٣٨)، «**الدرر الكامنة**» لابن حجر (١/ ٣٦٥).

صَفُّوا وتربُّوا عبادَ الله، أسألُ الله أن يجعلني وإياكم كذلك، إنه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

اللَّهُمَّ اغْفِر لَنَا وارْحمَنا، وعَافِنَا واعْفُ عَنَّا.

اللَّهُمَّ يَا ربَّ العَالَمين جَنِّبْنَا سَيئَ الأخلاقِ لَا يُجنبّنَا سيِّئَها إلَا أنتَ.

اللَّهُمَّ ارزُقْنَا صَالِحَ الأخْلاقِ، واهدنَا إليهَا لا يَهدينَا إليها إلَّا أنتَ.

اللَّهُمَّ اهدِنَا لصَالحِ الأخلاقِ لا يَهدي لصَالِحهَا إلَّا أنتَ، وجَنبنَا سَيئَ الأخلاقِ لا يُجَنبنَا سيِّئَها إلَّا أنتَ.

اللَّهُمَّ خُذْ بأيدينَا إليكَ، وأقْبِلْ بقلُوبنا عَليكَ.

اللَّهُمَّ أحينَا مُسلمِين، وتَوَفَّنَا مُؤمنينَ، وأَلحِقْنَا بالصَّالِحين.

اللَّهُمَّ أدرِكْ أمةَ نبيِّكَ ﷺ، واجمعْ اللَّهُمَّ شَمْلَهَا، وأَعلِ اللَّهُمَّ رايتَها، واجبُر كَسْرَها، وارأبِ اللَّهُمَّ صَدعَها، ولُمَّ اللَّهُمَّ شَعَثَهَا وشَملَها، يا ربَّ العالمينَ، ويا أرحمَ الرَّاحمينَ.

اللَّهُمَّ احرسْنَا بِعَينِكَ التي لا تَنَام، وبِرُكنكَ الذي لا يُضامُ، وبقُدرتِكَ علينَا، لا نَهْلِك وأنتَ رجاؤُنا.

اللَّهُمَّ إنَّا نَعوذُ بِكَ من كلِّ غِنًىٰ يُطغينا، ونَعُوذُ بِكَ من كلِّ فَقرٍ يُنسينَا، ونَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ يا ربَّ السَّمَوات والأَرضِ من كلِّ صَاحِبٍ يؤذينا.

وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ.

(٢)

إن الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنَا ومن سيِّئَاتِ أعمالِنَا، مَن يهده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بعدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالىٰ، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ[1].

أمَّا بعدُ:

فقد أنزلَ الله -جلَّت قدرتُه وتقدَّسَتْ أسماؤُه- علىٰ نبيه ﷺ وهو فِي

(١) سبق تخريجه في مطلع الكتاب، انظر (ص٥).

حَجَّةِ الوَدَاعِ بصعيدِ عرفاتٍ، أنزل عليه قولَه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، في يوم عرفاتٍ، في يوم جُمُعة؛ في حَجَّة الوداعِ علىٰ الصعيدِ الطاهرِ، وعلىٰ القلبِ المطهَّرِ، أنزلَ الله ربُّ العالمينَ قَولَه الذي سَلَفَ[١].

يقولُ الإمام مالك[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية: «**فما لم يكن يومئذٍ دينًا فلن يكونَ اليوم دينًا، ولن يَصلُحَ آخرُ هذه الأمة إلا بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوَّلُهَا**»[٣].

(١) للاستزادة راجع: «**تفسير ابن جرير الطبري**» (٩/ ٥٢٥)، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر.

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة، شيخ الإسلام، حجة الأمة، ولد عام ثلاث وتسعين من الهجرة، وذلك سنة موت الصحابي أنس ابن مالك خادم رسول الله ﷺ، طلب مالك العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا وجلس للإفادة، وله إحدىٰ وعشرون سنة، وحدَّث عنه جماعة وهو بعد شاب طري، وقصده طلبة العلم من الآفاق، قال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم. وقال ابن عيينة: مالك عالم أهل الحجاز، وهو حجة زمانه. وكان مالك طوالًا، جسيمًا، عظيم الهامة، أشقر، أبيض الرأس واللحية، عظيم اللحية، أصلع، وكان لا يُحفي شاربه ويراهُ مُثلةً، وكانت وفاته في ربيع الأول يوم الأحد لثلاث عشر خلت منه، سنة تسع وسبعين ومئة، وبلغ من العمر تسعة وثمانين عامًا ودفن بالبقيع.

راجع في ترجمته: «**سير أعلام النبلاء**» (٨/ ٤٨)، «**المعارف**» لابن قتيبة (٤٩٨)، «**الحلية**» (٦/ ٣١٦)، «**صفة الصفوة**» (٢/ ١٧٧).

(٣) أخرجه ابن حزم في «**الإحكام**» (٦/ ٧٩١)، قال: حدثنا أحمد بن عمر بن أنس، نا الحسين ابن يعقوب، نا سعيد بن فحلون، نا يونس بن يحيىٰ المفامي، نا عبد الملك بن حبيب، أخبرني ابن الماجشون أنه قال: قال مالك بن أنس: من أحدث في هذه الأمة اليوم شيئًا لم

وصدق رَحِمَهُ اللهُ فقد أكملَ الله ربُّ العالمينَ لنا الدينَ، ورَضِيَ لنا الإسلامَ دينًا، وأتمَّ علينا النِّعمةَ، وأجزلَ لنا العَطيَّة، وأوفىٰ لنا المنَّة، فلله ربِّ العالمين الحمدُ كلُّه، وله الشكرُ كلُّه، وإليه يُرجع الأمرُ كلُّه، دِقُّه وجِلُّه، والحمدُ لله رب العالمين الذي لم يُحوِجنَا إلىٰ رأي راءٍ، ولا إلىٰ فكرِ مُفَكِّرٍ إذا ما نزلت بالأمة نازلة، أو حلَّت بِهَا كَارثة، أو وقع بها ما يسوء؛ لأنَّ الله رَبَّ العالمين أكملَ لها الدينَ وأتمَّ عليها النعمةَ، ورضي لها الإسلامَ دينًا، «**فما لم يكن يومئذٍ دينًا فلن يكون يومًا من الأيام دينًا**».

الدينُ أكمله الله ربُّ العالمين لمحمدٍ ﷺ ولأمته، وما من أمرٍ يَعرِضُ حتىٰ يرثَ الله الأرضَ وما ومَن عليها إلا وفي كتاب الله -جلَّت قدرتُه- وفي سُنَّة النبي ﷺ بيانُه، وطريقُ الخروج منه، وكيف يتعاملُ المسلمون معه بأحنائِهِ وأنحَائِهِ، وأفنَائِهِ، تفصيلًا من بعد إجمال.

ودونك واقعة من وقائع النوازل يقصُّها الرسولُ ﷺ، هي من دلائلِ النبوة، ومن شَوَاهِدِ الصدقِ الجليَّة، عند خير البَرِيَّة ﷺ.

عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**إذَا تَبايعتُم بالعينة، وأخذتم أذنابَ البقرِ، ورضيتُم بالزَّرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّط الله عليكُم ذُلًّا لا يَنزِعُه**

=

يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٢]، وذكره الشاطبي في الاعتصام (١/ ٣٢٥).

حتَّىٰ تَرجِعُوا إلىٰ دينكم»[1].

وهذا حديثٌ صحيحٌ بمجموع طرقه؛ أخرجه أبو داود في «**سننه**»، والدولابي في «**الكنىٰ**»، وابنُ عدي في «**الكامل**»، والطبراني في «**مسند الشاميين**»، والبيهقي في «**السنن الكبرىٰ**»، وأحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في «**المسند**»، وفي «**الزهد**»، وكذا الطبراني في «**المعجم الكبير**»، وهو من دلائل صدقِ النبي ﷺ، وشاهدٌ لا يكذبُ علىٰ أنه رسولٌ مُرسَلٌ من عند ربنا -جَلَّت قدرتُه- فصلَّىٰ الله وسلمَ وباركَ عليه ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ ﷺ.

يُبَينُ لنا نبيُّنا ﷺ داءً ينزِلُ بالأمةِ، وذُلًّا يُسلَّط عليها، ثمَّ يَصِفُ نبيُّنا ﷺ الشفاءَ للداءِ وطريقَ الخروجِ من أجلِ البحثِ في الفضاءِ عن الدواءِ، من أجلِ رفعِ الذُّل عن العبادِ، عن الأمةِ بقَدَرِ الله ربِّ العالمين ورحمتِه.

«لا يَنزعُه عَنْكُم حَتَّىٰ تَرجِعوا إلىٰ دينكم»، وهنا أمران: ما هو الدينُ المرجوعُ إليه؟ وكيف يكونُ الرجوعُ إليه؟

ما الدينُ الذي يُرجَعُ إليه من أجلِ أَن يَرفَعَ الله ربُّ العالمين الذلَّ عن الأمة بعد إذ نَزَلَ بِهَا، وحلَّ بساحَتِهَا، وقَصَمَ ظهرَهَا، وفَتَقَ رَتقَهَا، وشَعَّث ما التمَّ بعد ذلك من شَعَثِهَا؟

كيف يكون الخروجُ من الذل؟

يوضحه لنا نبيُّنَا ﷺ بالعودةِ إلىٰ دينِ الله -جلَّ وعَلا- وهو ما جَاءَ بِهِ

(١) سبق تخريجه في مطلع الكتاب، انظر (ص٦).

محمدٌ ﷺ مُصَفًّىٰ من كُلِّ ما لَحِقَ به، مُبرّأً من كُلِّ ما التصَقَ به، كتابُ الله علىٰ مُرادِ الله، وسُنَّة رَسُولِ الله ﷺ علىٰ مُرادِ رسُول الله ﷺ.

وأما كَيفيَّة الرُّجُوعِ إلىٰ ذلك الدين المُصَفَّىٰ: فهو التربيةُ التي ربَّىٰ الله ربُّ العالمين المسلمينَ عليها وبها، من أجلِ الوصولِ والنفاذِ إلىٰ حقيقةِ الدين المصَفَّىٰ الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، في كتابِ الله ربِّ العالمين، وفي سُنَّة النبيِّ الأمين ﷺ بيَانُ ذلك بأجلَىٰ ما يكونُ.

كيف عَرَضَ النبيُّ ﷺ علىٰ الناس دينَ الله ربِّ العالمين مُبرّأً من كلِّ عَيبٍ، مُصَفًّىٰ من كُلِّ شَوبٍ؟

كيف أتىٰ به النبيُّ ﷺ كَمثلِ الشمسُ في رائعةِ الضُّحَىٰ، ليس دُونَها ضَبَابٌ ولا غَيمٌ ولا حِجَابٌ؟

جاء به النبيُّ ﷺ مَحَجَّةً بيضاءَ، وطريقًا مُنيرًا مستقيمًا، لا ظلمةَ فيه ولا غَبَش، ولا عِوَجَ فيه ولا التِوَاءَ، جاء بالدينِ المصَفَّىٰ، ورَبَّىٰ عليه الجيلَ المصَفَّىٰ المهَذَّبَ، فكَانُوا خيرَ الخلقِ بعدَ الأنبياءِ -رضوان الله عليهم أجمعين-.

يقولُ ربنا -جلَّت قدرته- في كتابه العظيم: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨].

أما قولُ ربكَ -جلَّت قدرتهُ-: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾، فالإشارةُ هاهنا إلىٰ ما جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ؛ من الدين المصَفَّىٰ عبادةً ودعوةً، ما جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ من الحقِّ الذي لا زَيفَ فيه ولا باطلَ معه.

﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾... أدعو إلىٰ الله، لم يَدعُ إلىٰ حظِّ نَفسِهِ، ولا إلىٰ ذاتهِ، ولم يتمحور حَول مركزِ كَونِ نَفسِهِ، وإنَّمَا يدعو إلىٰ ربِّ العالمين، **لأن الدعاةَ ينقسمون قسمين:**

قسم هو داعٍ إلىٰ الله ربِّ العالمين بالحقيقةِ، فهو مُخلِصٌ لله رب العالمين باطنًا، سائرٌ علىٰ طريق الحقِّ ظاهرًا، لا يتأتَّىٰ إليه خللٌ، ولا يحيط به زيغٌ، ولا يَلُمُّ به التواءٌ ولا عِوَجٌ، هذا القِسمُ علىٰ رأسِهِ نبيُّنَا محمد ﷺ.

وأما القسمُ الثاني: فهو داعٍ إلىٰ نفسِه، يدعو الخَلقَ لا إلىٰ عبادةِ الحقِّ، وإنَّمَا لكي يكونوا سائرين خَلفَه، مُتَّبعين لذاته، وهؤلاء ممن تضخَّمَت عندهم الذاتُ، ممن ذاقوا طَعمَ أنفسهم، فهم يَتَمَحْوَرُونَ حَولَ ذواتِهم، وكأنَّ الكونَ أصبحَ يَدُورُ حَولَ محورٍ من ذواتِهم، فليس للكونِ من خَيطٍ يشدُّه إلىٰ شيءٍ إلا إلىٰ محورٍ شائهٍ مُتمركز في قلَبٍ عليلٍ، وفي فؤادٍ سَقيمٍ.

﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ..... فهذا هو الإخلاص الحقُّ، وهذا هو الدينُ المُصَفَّىٰ؛ جاء به محمدٌ ﷺ.

وأما مَا يَتَأَتَّىٰ بَعدُ من التربية عليه فيوضحُه قولُ ربِّنَا -جَلَّت قدرتُه-: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾، وهاهنا للنُّحاةِ قولان: ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ، وأما خبره فهو ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ويكون ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ معطوفًا علىٰ الضمير ﴿أَنَا۠﴾، أي: أنَا ومَن اتَّبَعَنِي عَلَىٰ بصيرةٍ.

والقولُ الثَّانِي: يكون الضميرُ الظاهرُ ﴿أَنَا۠﴾ توكيدًا للضمير فِي قَولِهِ:

﴿أَدْعُوٓاْ﴾، أي: أدعو أنا، ويدعو مَن اتبعني إلىٰ الله ربِّ العالمين علىٰ بصيرة... ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾.

وأما البصيرةُ فليستْ العلمَ المجرَدَ؛ لأنَّه لا يُدعَىٰ إلىٰ الله ربِّ العالمين بالعلمِ المجرَّد وحده، وإنَّمَا يُدعَىٰ إلىٰ الله ربِّ العالمين بمعرفةِ الحكمِ الشَّرعي، وبمعرفةِ حالِ المدعُو، وبمعرفةِ الطريق الموصِّل إلىٰ المقصودِ، ومَن لم يُحصِّل هذه وهي البصيرةُ، وهي الحكمةُ التي مدحهَا الله رب العالمين في كتابِه العظيمِ، من لم يُحصِّل هذه الأمورَ بشرائطها وقواعدِها وأُسسها؛ كان ما يُفسِدُ أكثرَ مما يُصلِحُ، وكان مما يأتي بِه بَاطِلًا أكثرَ مما يُحقُّه حقًّا، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله العلي العظيم.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ يعني: بمعرفة الحكم الشرعي، وهو العلم الذي آتاه الله ربُّ العالمينَ محمدًا فأدَّاهﷺ إلىٰ النَّاسِ، يتعاطاه من كلِّ خَلَفٍ عُدولُه، حتَّىٰ يصيرَ عند المعدَّلين بتعديلِ النبيِّﷺ، ثُمَّ معرفةٌ بحالِ المَدعُو، ومعرفةٌ بالطريقِ الموَصِّل إلىٰ المقصودِ[1].

(١) قال شيخنا سماحة الوالد أبو عبد الله محمد بن سعيد رسلان في كتابه الماتع «**فضل العلم وآداب طلبته وطرق تحصيله وجمعه**» (ص١٠) في بيان مراحل الوصول إلىٰ الحق:

مراحل الوصول إلىٰ الحق أربع هي:

المرحلة الأولىٰ: أن يُدَّعىٰ علىٰ أمر ما بأنه هو الحق.

المرحلةُ الثانية: أن يُقام الدليل علىٰ صدق هذه الدعوىٰ من الكتاب والسُّنَّة أو الإجماع أو آثار الصحابة.

=

=

المرحلة الثالثة: أن يفهم الدليلُ فهمًا صحيحًا، بحيث يمكن الجزم بأنه هو عينُ المراد من الكتاب أو السُّنَّة أو الإجماع أو آثار الصحابة.

المرحلة الرابعة: أن يُطبَّق الفهمُ المستقيم للدليل الصحيح تطبيقًا صحيحًا، كما كان يُطبَّق في الصدر الأول.

وتفصيلُ ذلك ومثَالُه أن نقول:

المرحلة الأولىٰ: أن يَدَّعي مدعٍ من أهل العلم أن السُّنَّة في الوقوف في الصف في الصلاة تكون بإلزاق الرَّجُلِ مَنكَبهُ بمنكَب صاحبه، وكَعبه بكعبه.

المرحلة الثانية: فإذا طُولب بالدليل قال: أخرج البخاري تعليقًا عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: رأيت الرجلَ منا يلزق كعبه بكعب صاحبه. وهو طرف من حديث أخرجه أبو داود، وصححه ابن خزيمة من رواية أبي القاسم الجُدلي، واسمه حسين بن الحارث، قال: سمعت النعمان ابن بشير يقول: أقبل رسول الله ﷺ علىٰ الناس بوجهه فقال: «**أقيموا صفوفكم** -ثلاثًا- **والله لتقيمُنَّ صفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين قلوبكم**». قال: فلقد رأيت الرجلَ منا يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وكعبه بكعبه.

المرحلة الثالثة: فإذا قيل: كيف يُفهم الدليلُ فهمًا صحيحًا؟ فإنه قد يتبادر إلىٰ الذهن أن الكعب هو كذا أو كذا من عظام القدم، فما هو الكعب حتىٰ نفهم كيفية الإلزاق؟ قيل: إن الكعب علىٰ حسب ما يُستدل بحديث النعمان بن بشير عليه هو: العظم الناتئ في جانبي الرِّجل عند ملتقىٰ الساق بالقدم، وهو الذي يمكن أن يلزق بالذي جنبه، خلافًا لمن ذهب أن المراد بالكعب مؤخر القدم، وهذا هو الفهم المستقيم للدليل.

المرحلة الرابعة: فإن قيل: هَب رجلًا يعلم هذه السُّنَّة من سُنن الصلاة، ويريد أن يطبقها مع من بجانبه في الصف، وهذا لا يعلم هذه السُّنَّة، ولا يدري خبرها، فكلما أراد الأول أن يلزق رجله برجل صاحبه، ضمَّ هذا رجليه، فهل يكون تطبيق الفهم المستقيم للدليل أن يلزق الرجل رجله برجل صاحبه، وإن بالغ هذا في ضم رجليه، والبعد عن مجاوره؟ أو =

وهذا ابنُ عباس[1] رضي الله عنهما يروي كما في الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا بَعَثَ

=

يحاول معه علىٰ رجاء أن يكون عالمًا بالسُّنَّة فإن لم يكن، تظل النية ويكف العمل، حتىٰ يفرغ من الصلاة فيُعلَّم.

لابد -إذن- أن يطبق الفهم الصحيح المستقيم تطبيقًا سديدًا يقع علىٰ الوجه الذي أراده الشارع الحكيم، ولا يكفي أن يُدَّعىٰ علىٰ أمر أنه هو الحق كي يصبح حقًّا، ولا يكفي أن يُقام عليه دليل صحيح، وإنما يجب أن يفهم الدليل فهمًا يمكن الجزم معه بأنه فهم السلف الصالحين، ولا يكفي أن يكون الفهم مستقيمًا والدليل صحيحًا، حتىٰ يطبق ما طبقه السلف الصالح من غير زيادة ولا نقصان، فإن تخلف من تلك المراحل شيء فلن يتوصل إلىٰ الحق الذي أحقه الشارع وارتضاه.

وعليه؛ فليس لأحد أن يصير حاطبَ ليل، يخلط الدرَّ بالبعر، ويأتي بأقوالٍ متهافتة لا تتماسك، ثم يدعي أن معه علىٰ ما صار إليه دليلًا، بل يجب أن يكون الدليل صحيحًا، وليس لأحد أن يأتي بدليل صحيح ثم يطوعه لفهمه هو، ويغدو ويروح بفلسفة كمضغ الماء يدعي أن معه الدليل الصحيح، وما معه إلا فهمه هو، وما معه إلا دين شرعه له هواه، وليس لأحد أن يأتي بدليل صحيح، ويفهمه فهمًا صحيحًا، ثم يطبقه تطبيقًا ليس من الدين بسبب، بل يجب أن يطبق الفهم الصحيح للدليل الصحيح تطبيقًا صحيحًا. اهـ

قلت: وهذه بفضل الله العلي الكبير درة من الدرر التي تفتق عنها ذهن الشيخ الوالد -حفظه الله وأكرمه الله بها- ولم يسبق لأحد ترتيبها بهذه الطريقة، فلله الحمد والمنة.

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، القرشي الهاشمي المكي، أبو العباس حبر الأمة، فقيه العصر، إمام التفسير، مولده بشعب بني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين، كان وسيمًا جميلًا، مديد القامة، مهيبًا، كامل العقل، ذكي النفس، من رجال الفضل والكمال، توفي رسول الله ﷺ ولابن عباس ثلاث عشرة سنة، قال عنه طاوس: ما رأيت أحدًا أشبه تعظيمًا لحرمات الله من ابن عباس. وقال ابن مسعود: لنعم ترجمانُ القرآن ابن عباس، =

مُعاذًا[1] إلىٰ اليمن قال: «**إِنَّكَ تَأتِي قَومًا مِن أهلِ الكِتَابِ**» يُعرِّفه بحالِ المدعُوين إلىٰ دينِ الله ربِّ العالمين فهذَا من البصيرة كما مرَّ ذكره... «**إِنَّكَ تَأتِي قَومًا من أهلِ الكتَابِ، فَليَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدعُوهم إليه أن يَشهَدوا أن لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فإن هُم أطاعُوك لذلك فأعلمهم أنَّ الله قَد فَرَضَ عليهم فِي اليومِ خمس صلواتٍ...**».

أعلَمَه بالحكم الشرعي؛ بالعلم الذي يدعو إليه ﵁، ثُمَّ أخبره ﷺ بالطريقِ الموصِّل إلىٰ المقصودِ، فسار عليه، فَكَانَ مِن الناجين، الناجحين، المُفلحين -رضوان الله عليه- ولا غَروَ ولا جَرَمَ، فإنَّ مُعَاذًا أعلمُ الأمةِ بالحلال والحرامِ، يقول فيه النبي الهمام: «**يأتِي مُعاذٌ يومَ القيامَةِ أمامَ العلماء** -يعني أمام العلماء:

=

توفي ﵁ سنة ثمان أو سبع وستين، وعاش إحدىٰ وسبعين سنة.

راجع ترجمته في «**سير أعلام النبلاء**» (٣/ ٣٣١)، و«**المعرفة والتاريخ**» (١/ ٢٤١)، و«**الحلية**» (١/ ٣١٤).

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن الخزرج، السيد الإمام، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي المدني البدري، شهد العقبة شابًّا أمرد، وله عدة أحاديث، كان طوالًا، حسن الثغر، عظيم العينين، أبيض، جعدًا، قططًا، قال عمر ﵁: من أراد الفقه فليأتِ معاذ بن جبل، لولا معاذ لهلك عمر. توفي سنة سبع عشرة من الهجرة، قال عبد الله بن قرط: حضرت وفاة ابن جبل، فقال: روحوني ألقىٰ الله مثل سن عيسىٰ بن مريم، ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة.

راجع في ترجمته «**سير أعلام النبلاء**» (١/ ٤٤٣)، و«**المعارف**» (٢٥٤)، و «**حلية الأولياء**» (١/ ٢٢٨).

إِمامَ العلماء- **بَرَتوةٍ**»[1]؛ أي: بَرَمية حَجَر -رضوان الله عليه-.

قال له النبي ﷺ: «**فليكن أولَ ما تَدعُوهم إليه شَهَادَةُ أنَّ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ مُحمدًا رسولُ الله، فإن هُم أطاعوكَ لذلك فأعلِمهُم أن الله قَد فَرَضَ عليهم في اليومِ خَمسَ صلوات، فإن هُم أجابُوك لذلك فأَعلِمهُم أن الله قَد فَرَضَ عليهم فِي أموالِهم صَدَقَة، تُؤخذُ منهم، ثُمَّ تُردُّ علىٰ فُقَرائهم**». ثم أخبره بِمُحتَرَزاتٍ ينبغي أن يَلْتفِتَ إليها، وأن يَتَحرَّزَ منها، قال: «**وإيَّاكَ وكرائمَ أموالِهم**» لأن المالَ لائطٌ بالقلوبِ، مُلتَصِقٌ بها، ولأَنَّه شقيقُ الروح، لا يخرج حُبُّه من القلبِ إلا بخروجِ الرُّوحِ منَ الجَسدِ، «**وإيَّاك وكَرائمَ أموالِهم، واتَّقِ دَعوةَ المظلومِ، فإنَّه**

(١) أخرجه الحاكم في «**المستدرك**» ٣١- كتاب معرفة الصحابة (ح٥١٧٥/ ٣/ ٣٠٢)، وذكره الهيثمي في «**المجمع**» (٩/ ٣١١)، وقال: رواه الطبراني، ورواه أيضًا منقطع الإسناد، وذكره الذهبي في «**سير أعلام النبلاء**» (١/ ٤٦٠)، جميعًا عن يحيىٰ بن بكير قال: سمعت مالك بن أنس يقول: إن معاذ بن جبل هلك وهو ابن ثمان وعشرين، وهو إمام العلماء برتوة، وأبو نعيم في «**الحلية**» (١/ ٢٢٩)، وابن سعد في «**الطبقات**» (٣/ ٢/ ١٢٦)، من طريق سعيد بن أبي عَروبة، عن شهر بن حوشب، عن عمر رضي الله عنه قال: لو أدركت معاذًا، ثم وليته، ثم لقيت ربي، فقال: من استخلفت علىٰ أمة محمد؟ لقلت: سمعت نبيك وعبدك يقول: يأتي معاذ بن جبل بين يدي العلماء برتوة.

وأبو نعيم، عن يحيىٰ الشيباني، عن أبي العجفاء قال: قال عمر، وذكره.

وأبو نعيم في «**الحلية**» (١/ ٢٢٩)، من طريق قُتيبة بن سعيد، عن عبد العزيز بن محمد، عن عمارة بن غُزية، عن محمد بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ... وانظر «**مجمع الزوائد**» للهيثمي (٩/ ٣١١)، وأحمد (١/ ١٨) من طريق صفوان، عن شريح بن عبيدة، وراشد بن سعد وغيرهما قالوا: لما بلغ عمر ... والنص أطول.

لَيسَ بينها وبينَ الله حِجَابٌ»[1].

هَذَا الحديثُ المتَّفَقُ علىٰ صِحتِهِ يُبَينُ فيه الرسولُ ﷺ تربيةَ الأمةِ علىٰ المنهجِ المصَفَّىٰ، وكيفَ تكونُ البصيرةُ، وهي التربيةُ علىٰ ما جَاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ من الدينِ المُصَفَّىٰ؛ لأنَّ الخروجَ منَ الذُّلِ -كَمَا بَيَّنَ النبيُّ ﷺ في حديثِ ابن عمر رضي الله عنهما- يكونُ بالرجوعِ إلىٰ الدين، فالدينُ المرجوعُ إليه إنما هو مَا جَاءَ به محمدٌ ﷺ مُصَفًّىٰ من كُلِّ مَا يَشُوبُ.

النبيُّ ﷺ أكملَ الله ربُّ العالمينَ لهُ ولأمتهِ الدينَ، وأكمَلَ عليه النعمَةَ، وَرضِيَ لهُ الإسلامَ دينًا، «**فما لم يكن يومئذٍ دينًا فلن يكونَ اليومَ دينًا**». وهاهو ﷺ كما في وصيته لمعاذٍ رضي الله عنه، يُبَيِّنُ لمن نَصَبَ نَفْسَه داعيًا إلىٰ الله ربِّ العالمينَ.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لَا إلىٰ حظِّ نفسي، ولا إلىٰ شَهوَةِ قَلبي،

(١) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٣٠- كتاب الزكاة، ٦٢- باب أخذ الصدقة من الأغنياء، وتُرد في الفقراء حيث كانوا (ح١٤٢٥/ ٢/ ٥٤٤)، ومسلم في «**صحيحه**» ١- كتاب الإيمان، ٧- باب الدعاء إلىٰ الشهادتين وشرائع الإسلام (ح١٩/ ١/ ٥٠)، وأبو داود في «**سننه**» ٣- كتاب الزكاة، ٥- باب في زكاة السائمة (ح١٥٨٤/ ٢/ ٦٨٥)، والنسائي في «**سننه**» ٢٣- كتاب الزكاة، ١- باب وجوب الزكاة (ح٢٤٣٥/ ٥/ ٢)، والترمذي في «**سننه**» ٥- كتاب الزكاة، ٦- ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة (ح٦٢٥/ ٣/ ٢١)، وابن ماجه في «**سننه**» ٨- كتاب الزكاة، ١- باب فرض الزكاة (ح١٧٨٣/ ١/ ٥٦٨)، والبغوي في «**شرح السنة**»، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة (ح١٥٥٧/ ٥/ ٤٧٢)، والطبراني في «**الكبير**»، فيما روىٰ أبو معبد عن ابن عباس (ح١٢٢٠٧/ ١١/ ٤٢٦)، جميعًا من طرقٍ عن يحيىٰ بن عبد الله بن صيفي عن أبي معبد عن ابن عباس...فذكره.

ولا إلىٰ محورٍ يَتَمَرْكَز في ذاتي، من أجلِ أن تَضَخَّمت عندي الذاتُ، فهي لا تأبىٰ إلَّا أن تكونَ عاصيةً لله ربِّ العالمين، غير طائعة لوصايا النبيِّ الأمينﷺ.

يُبيِّن النبيُّ ﷺ للدعاةِ إلىٰ الله ربِّ العالمين ما ينبغي أن يأخذَ به الواحدُ منهم إذا كانَ داعيًا إلىٰ الله حقًّا، بتربيةٍ جليلةٍ، مستقيمةٍ علىٰ النهج الأعدَلِ، من أجلِ أن تُؤتِي هذه الدعوةُ -مُلقَّحةً بهذا المنهج الأكمل- ثمارَهَا بفضل ربِّهَا، ولله الحمد والمِنَّة.

لابد للداعي إلىٰ الله أن يعلمَ الحكمَ الشرعيَّ، وأن يعلمَ حالَ المدعُو، وأن يعلمَ السبيلَ الموصِّلَ إلىٰ المقصود، وقد بيَّن الرسولُﷺ ذلك ووضَحه أكملَ بيانٍ وأجْلَاهُ، فلا تعقيبَ بعد ذلك لأحدٍ، وإنَّما نَلتَفِتُ إلَىٰ نَمَاذِج القرآنِ العظيم، وقَدْ قصَّ علينَا من النَماذجِ البشريةِ ما ينبغي أن يتأمَّلهُ الإنسانُ لكي يعلمَ إلىٰ أيِّ فريقٍ يصير، وإلىٰ أيِّ مَنحًىٰ ينبغي عليه أن يشُدَّ الأَزرَ، من أجلِ الوصولِ إلىٰ الغايةِ التي يَتَغَيَّاها بفضلِ الله العلي الكبير.

إنَّ الله ربَّ العالمين أخبرنَا في القرآنِ العظيمِ بفريقٍ من النَمَاذجِ البشريةِ التي عِندَها من الوَضَاءَةِ الشَّفيفَةِ في قلوبٍ مُشرِقةٍ نظيفةٍ ما استحقَّت به واستأهَلَت أن يذكرَها الله ربُّ العالمينَ في القرآنِ العظيمِ فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧].

أخرجَ الحاكمُ في «**المستدرك**» بإسنادٍ علىٰ شرطِ مُسلِمٍ ولم يُخرِّجَاه أن هذه الآية العظيمة إنَّما نزلت في صُهَيبٍ الرُّومي ﷺ، وهو صُهَيبُ بن سِنَان بن

مَالِكٍ[1] ولم يكن ﷺ رُوميًّا قط، وإنَّما كَانَ رُوميًّا مَربًّىٰ، لأنه أُسِرَ صغيرًا، وكان عربيًّا من ناحيته، فإنَّ أبَاه كانَ عربيًّا، وأمَّه كانَتْ عربيةً أيضًا، أبوه عربيٌّ نُمَيريٌّ يعودُ نسبُه إلىٰ النَّمِر بن تَولَب، وأمُّه من بني تميم، وأمَّا هو فلمَّا كَانَ صغيرًا أخذته أمُّه معها إلىٰ «**الثَّني**» من أرض العراق، وكان أبوه عاملًا لكسرىٰ علىٰ مكان يقال له: «الأُبُلَّة»[2]، فعَدَتْ عادِيةٌ مِن جُند الروم علىٰ الثِّني فأخذت ما أخذت سَبيًا، فكانَ مِمَّن أُخذَ صُهيبٌ ﷺ، فبيعَ بَيعَ الرَّقيقِ، فمَازالت تتَدَاوَلُه

(١) صهيب بن سنان أبو يحيىٰ النمري، من النمر بن قاسط، ويعرف بالرومي؛ لأنه أقام في بلاد الروم فترة، وهو من أهل الجزيرة، سبي من قرية «**نينوىٰ**» من أعمال الموصل، وقد كان أبوه -أو عمه- عاملًا لكسرىٰ، ثم إنه جُلب إلىٰ مكة، فاشتراه عبد الله بن جُدعان القرشي التميمي، ويقال: بل هرب، فأتىٰ مكة، وحالف ابن جدعان، كان من كبار السابقين البدريين، وكان رجلًا أحمر، شديد الحمرة، ليس بالطويل، وكان فاضلًا وافر الحرمة، له عدة أولاد، ولما طعن عمر ﷺ استنابه علىٰ الصلاة بالمسلمين إلىٰ أن يتفق أهل الشورىٰ علىٰ إمام، وكان موصوفًا بالكرم والسماحة ﷺ، مات بالمدينة في شوال سنة ثمان وثلاثين، وكان ممن اعتزل الفتنة علىٰ إثر مقتل الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان ﷺ وأقبل علىٰ شأنه ﷺ.

راجع في ترجمته «**سير أعلام النبلاء**» (٢/ ١٧)، و«**الجرح والتعديل**» (٤/ ٤٤٤)، و«**أسد الغابة**» (٣/ ٣٦).

(٢) كورة بالبصرة جنوب العراق، طيبة جدًّا، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيار، متدفقة الأنهار، قالوا: جنان الدنيا أربع: أُبلة البصرة، وغوطة دمشق، وصُغد سمرقند، وشعب بوَّان.

والأُبلة جانبان: شرقي وغربي، فأمَّا الشرقي فيعرف بشاطئ عثمان قديمًا وهو عامر بالأشجار، وأما الجانب الغربي فخراب ليس فيه شيء من العمران، والأُبُلة الآن ميناء كبير علىٰ رأس الخليج العربي جنوب مدينة البصرة. راجع «**آثار البلاد وأخبار العباد**» لزكرياء بن محمد ابن محمود القزويني (ص٢٨٦).

الأيدِي حتَّىٰ وقعَ عِندَ سيدٍ من ساداتِ الرُّوم، ثُمَّ لَمَّا سمعَ يومًا كاهنًا يقول لسيده: هذَا زمانٌ قَدْ أطَلَّ، وأَطَلَّ فيه نَجمُ أحمدَﷺ، وقَدْ أوشكَ أَوَانُ خروجِهِ بمكةَ، فغَافَل صهيبٌ سَيِّدَه يومًا، فهرب إلىٰ مكَةَ، فنزلَ بها، فكانَ عندَ عبد الله ابن جُدعانٍ؛ لأنه كانَ حليفًا له، حليفَ ولاء، ومَازالَ حَتَّىٰ خَرَجَ محمدٌﷺ مبعوثًا مُنَبَّأً، فذهبَ إلىٰ دار الأرقمِ، فَلَقِي عَمَّارًا ﵁ فدخَلا معًا، فأسلمَا معًا، فلمَا أظهرَ الله ربُّ العالمينَ أمرَ نبيِّهﷺ، وأعلن بالرسالةِ في الآفاقِ كلِّهَا نال صهيبًا من أذَىٰ المشركين ما ناله، فصبرَ، واحتسبَ، حتَّىٰ أمرَ النبيُّﷺ بالهجرةِ إلىٰ المدينةِ.

وكَانَ صُهيبٌ قَدْ تَخَلَّفَ -رضوانُ الله عليه- وخرجَ بعد هجرةِ المختارِﷺ إلىٰ المدينةِ، خرج وكانَ قد اتَّجَر بمكةَ، واغتنَىٰ، وأصبحَ ذَا مالٍ وثَراء، ولما أرادَ أن يخرجَ مُهاجِرًا إلىٰ الله ورسولِهِﷺ، رَصَدَت لهُ قريشٌ الرُّقَبَاءَ، فكانوا يَرقُبُونه صباحَ مساءَ، ولا يغدو ولا يروح دون النظرِ من الرقباءِ طَرفَة عينٍ.

فلمَّا أراد في ليلة باردةٍ شديدةِ البردِ قارصة، أن يخرج مهاجرًا إلىٰ النبيﷺ أخذَ يذهبُ إلىٰ الخَلاءِ، ثُمَّ يعودُ، فلا يلبث أن يعود إلىٰ الخلاءِ، ثم لا يلبث بعد أن يعود أن يذهب إلىٰ الخلاءِ، فقال الرُّقَبَاءُ بعضُهم لبعضٍ: إن اللاتَ والعُزَّىٰ قد كَفَتَاكُموه الليلةَ، فناموا نومًا هانئًا، وأخذ صُهيب ﵁ كنانةَ سِهَامِه وقوسِهِ، وخرجَ مُهاجرًا إلىٰ الله ورسُولِه، وما فَتِئَ القومُ أنِ انتبهُوا، فخرجُوا يَشتَدُّونَ في أثره، فوقفَ برابيةٍ هنالكَ بعدَ أن صَعَدَها ثُمَّ قَالَ: يا معشرَ قريشٍ: تعلمونَ أنِّي أرمَىٰ أهلِ هذا الوادِي، وإن مَعِي لأربعين سَهمًا، لا تقتربون مني

حتىٰ أصيبَ منكم أربعين رجلًا، ثُمَّ ما أزالُ أُقَاتِلُكم بَعدُ بسيفي حتىٰ لا يبقىٰ منه في يدي شيءٌ[1].

فحينئذٍ يتأتَّىٰ الأمرُ الكبير، يتنازلُ عن الدنيا ويخرجُ منها كيوم ولَدَته أمُّه: ولكن أدلكم علىٰ ما هو أجدَىٰ لكم من ذلك، هذَا مالي أدلُّكم علىٰ موضعه، ولي قَينتان[2] فهما لكم، فرضيت قريشٌ منه بتلك الغنيمةِ، وذهب مهاجرًا إلىٰ الله ورسولهﷺ، وكان قد رَمِدَ في الطريق، وأصاب الرَّمَدُ عَينَيهِ، فلما أتَىٰ إلىٰ النبيﷺ كان بين يدَي رسُولِ اللهﷺ رُطَبٌ وتَمرٌ يأكلُﷺ ومعه أبو بكرٍ وعمر، فجاء صُهَيبٌ فكانَ بينَ يَدَي النبي ﷺ، وقَدْ كَادَ يَفِتكُ به الجُوعُ، فانحطَّ فأخذ يأكلُ أكلًا ذريعًا، فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ مداعبًا: «**أتأكلُ التَّمرَ وأنت أرمَدَ**؟ قال: إنمَّا آكلُ علىٰ شِق عيني الأُخرىٰ»[3].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «**تفسيره**» (٢/ ٣٦٨/ح ١٩٣٩)، وأبو نعيم في «**الحلية**» (١/ ١٥١)، والطبري في «**تفسيره**» (ح٤٠٠٢/ ٤/ ٢٤٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر: ذكره في «**تفسير البغوي**» (١/ ٤٨١-٤٨٢)، مع اختلاف في اللفظ.

(٢) قال في «**المعجم الوسيط**» [مادة -قان- (ص٧٧١)]: القينَةُ: هي الأمة صانعة، أو غير صانعة، وغلب علىٰ المغنية.

(٣) أخرجه الحاكم في «**المستدرك**» ٣١-كتاب معرفة الصحابة، (ح٥٧٠٣/ ٣/ ٤٥١)، من طريق أبي بكر محمد بن أحمد بن بالويه، ثنا محمد بن شاذان الجوهري، ثنا سعيد بن سليمان الواسطي، ثنا عبد الله بن المبارك أخبرني عبد الحميد بن صيفي من ولد صهيب، عن أبيه، عن جده صهيب قال: قدمت علىٰ رسول الله ﷺ بالهجرة وهو يأكل تمرًا، فأقبلت آكل من التمر وبعيني رمد، فقال: **أتأكل التمر وبك رمد**؟ فقلت: إنما آكل علىٰ شقي الصحيح ليس =

صلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، ورضي الله عن صحابته أجمعين.

قال النبيُّ ﷺ لصُهَيب وقد أخبر صهيبٌ نبيه بأنَّه قَدْ افتدَىٰ نفسه بما افتَدىٰ من أمرِ الدنيا فانسلخَ منها، قال: «**ربحَ صُهَيبٌ، رَبِحَ صُهَيبٌ**»[1].

إن الله ربَّ العالمين إنَّما اطَّلعَ علىٰ قلبِ الرجلِ فأنزلَ فيه بيانًا يُتلَىٰ وقُرآنًا يُرَتَّل إلىٰ يومِ الدينِ، يقولُ ربنا -جلَّت قدرته-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ﴾؛ يعني: يبيع نفسَه لله ربِّ العالمين[2].

=

به رمد، قال: فضحك رسول الله ﷺ . قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «**التلخيص**»: صحيح.

(١) أخرجه ابن سعد في «**الطبقات**» (٢/ ٢٢٧) عن هوذة، عن عوف، عن أبي عثمان، قال: بلغني أن صهيبًا... فذكر نحوه.

ورواه ابن سعد في «**الطبقات**» (٢/ ٢٢٨)، وأبو نعيم في «**الحلية**» (١/ ١٥١)، من طريق علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب... فذكر نحو القصة.

وأخرج نحوه الحاكم في «**المستدرك**» (٣/ ٤٠٠)، والبيهقي في «**دلائل النبوة**» (٢/ ٥٢٢)، من طريق سعيد بن المسيب، عن صهيب... نحوه.

(٢) أخرج الحاكم في «**المستدرك**» ٣١- كتاب معرفة الصحابة (ح٥٧٠٠/ ٣/ ٤٥٠)، من طريق أبي عبد الله محمد بن عبد الله الزاهد، ثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، ثنا سليمان ابن حرب، ثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة، قال: لما خرج صهيب مهاجرًا تبعه أهل مكة، فنثل كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا فقال: لا تَصلون إليَّ حتَىٰ أضع في كل رَجُل منكم سهمًا، ثم أصير بَعدُ إلىٰ السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفُت بمكة قينتين فهما لكم. قال: وحدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس نحوه، ونزلت علىٰ النبي ﷺ:
=

و﴿يَشْرِي﴾ من ألفاظِ الأضدادِ، فهي بمعنىٰ «**يشتري**» وبمعنَىٰ «**يبيع**» وعلىٰ أي الوجهين قلبتها استقامت معك معنًىٰ، فهي بمعنىٰ: يبيعُ نفسَه لله ربِّ العالمين، أو هي بمعنىٰ يشتري نفسَه بالدنيا وما ملكَ فهي علىٰ الوجهين مستقيمةُ المعنىٰ بفضلِ الله -جلَّ وعَلا-.

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ وذلكَ بعد أن ذكرَ لَنَا ربُّنَا صورةً من الصُّورِ الشائهةِ، تراهَا حولكَ في كلِ مكانٍ، تكادُ تتملَّاها في طَلَعَاتٍ منحُوسَةٍ، وأجسادٍ منجوسةٍ، وتكادُ تطَّلِعُ عليها في ثيابٍ قد اشتملت علىٰ جِيَفٍ قَدْ نَفَرَت من القبرِ هاربةً، تكادُ تراهَا وتَشُمُّ ريحَها في كلِّ حين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]

=

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧]، فلما رآه النبيﷺ قال: «**أبا يحيىٰ، ربح البيع**»، قال: وتلا عليه الآية، قال الحاكم: صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي في كتابه «**الصحيح المسند من أسباب النزول**» (**ص١٤**): الحديث له طرق أخر أغلبها مراسيل كما في «**الإصابة**» (٢/ ١٨٨)، وفي «**الطبقات**» لابن سعد (٣/ ١٦٢-١٦٣) من القسم الأول، وهي بمجموعها تزيد الحديث قوة، وتدل علىٰ ثبوته. اهـ

وهي صورةٌ قائمةٌ تتَمَلَّىٰ في نَمَاذِجَ بشرية تُوجد في كلِّ مجتمعٍ: رجلٌ يُعجِبُك قولُه في الحياةِ الدُّنيا، وهذه الصُورةُ فيها أيضًا قولانِ، علىٰ أي وجهيهما قلَّبتها وجدتَها رائعةَ المعنىٰ واضحتَهُ، ولله الحمدُ ربُّ العالمين.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، يعني: في حالِ كونِه في الحياةِ الدنيَا، أو ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ إذا ما تكلم في الحياة الدنيَا؛ لأنَّه لا يعرفُ إلَّا الحياةَ الدُّنيَا، ولا يستطيعُ أن يتكلَّمَ في أمرٍ من أمورِ الآخرةِ، فهذه أولَىٰ الصفات ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فقولٌ لينٌ مَعسُولٌ، وأيضًا مَلْمَسٌ كَمَلمَسِ الحية الرَّقْطَاءِ، لَدنٌ[1] لَيِّنٌ، ولكن من دونِ ذلكَ الموتُ الزُّؤَام، نعوذُ بالله ربِّ العالمين من ذلكَ، نعوذُ بالمليكِ العلام.

ثُمَّ هُو لا يَتَوَقَّفُ عندَ تِلكَ الحُدودِ، وإنَّمَا يُشهِدُ الله عَلَىٰ مَا في قَلبِهِ، فإِذَا مَا تكَلَّمَ بأمرٍ من الأمورِ، وإذَا مَا أَتَىٰ بقضيةٍ من القضايا، وإذا ما سَاقَ شاهدًا من الشواهِد، أشهدَ الله ربَّ العالمين، الذي لا تغيبُ عنهُ غائبةٌ علىٰ ما فِي قلبه فهذه ثانية الخِصَال.

وأمَّا ثالثتها، فقول الله ربِّ العالمين: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾، فأمَّا خِصامُه فهو أشدُّ ما يكونُ، وأمَّا عِنادُه فهوَ أعتَىٰ ما يكونُ، وأما جِدالُه فهو أجدَلُ ما يكونُ، والله ربُّ العالمين لا يُحبُّ ذلك ولا يرضاه.

(١) لدُنَ الشيءُ لدَانةً، ولُدُونَةً: لانَ، فهو لَدنٌ، ولِدانٌ، يقال: فلان لَدنُ الخليقة. أي: ليِّن العريكة «**المعجم الوسيط**» مادة (لدن).

يقول النبيُّ ﷺ كما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبيﷺ: «**إنَّ أبْغَضَ الرجالِ إلىٰ الله ربِّ العالمينَ الألَدُّ الخَصِم**»[1].

والألَدُّ: الخَصِمُ الذي يخصِمُ مَن يُجادلُه ويحاوره، ويُفلجُ مُجادلَه بحجةٍ باطلة لا تقوم، مأخوذةٌ مِن اللديدَين، وهما صفحتا العُنُق؛ لأنه من أي جهةٍ أتيتَه وجدتَه شديدَ الخصومةِ، عظيمَ الجِدال.

والله ربُّ العالمينَ لا يُحبُّ أمثالَ هذه الأصنافِ كما قال نبيناﷺ: «**إنَّ أبْغَضَ الرجالِ إلَىٰ الله ربِّ العالمينَ الألَدُّ الخَصِم**» ... ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: إذا ما أعرض عنكَ فَذَهَبَ مُولِّيًا، أو إذا تَولَىٰ ولايةً فكانَ عليها، وهو قولٌ آخرَ في هذا الموضع من الآية لعلمائنا -رحمة الله عليهم-...

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، والسَّعْيُ سَيرٌ حَثِيثٌ، يمضي قُدُمًا لا يلتفتُ كأنَّمَا يَقْدُمُ علىٰ عالياتِ الأمورِ، وكأنَّمَا يتأتَّىٰ بمعاقدِ المجدِ وقوائم العِزِّ، وما يَدرِي المسكينُ أنَّه يَتَرَدَّىٰ في الخَبالِ، ويتورَّطُ في حَمأةِ الذُّلِّ دنيَا وآخرةٍ.

يقولُ الله -جلَّ وعَلا-: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾، الحَرثُ: هو الأرضُ المحروثة، ثُمَّ

(١) أخرجه البخاري فِي «**صحيحه**» ٦٨- كتاب التفسير ، ٣٩- باب ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ (ح٤٢٥١/ ٤/ ١٦٤٤)، ومسلم في «**صحيحه**» ٤٧- كتاب العلم، ٢- باب في الألد الخصم (ح٢٦٦٨/ ٤/ ٢٠٥٤)، والنسائي في «**سننه**» ٤٩- كتاب آداب القضاة، ٣٤- باب الألد الخصم (ح٥٤٢٣/ ٨/ ٢٤٧)، والبغوي في «**شرح السنة**» باب كراهية اللدد في الخصومة (ح٢٤٩٩/ ١٠/ ٩٧)، جميعًا من طريق ابن أبي مُليكة، عن عائشة عن النبيﷺ.

أُطلِقَت وأُرِيدَ مَا يخرجُ مِنهَا مِن الزُّروعِ والثِّمَار، فهو يُهلِكُ مَا بِهِ قوتُ النَّاسِ حَرثًا ونَسلًا مما جعَلَهُ الله ربُّ العالمينَ قُوتًا من الحيواناتِ، تقومُ به قائمةُ الأحياءِ في دنيا الله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة:٢٠٦].

صفاتٌ خمسٌ ذكرها الله ربُّ العالمينَ لهذا النموذجِ القَبيح، القَمِيءِ، الشَّائِه، ظاهرًا وباطنًا، المُشَوَّه البَاطِن والظَاهِرُ معًا، وجعلَ الصورةَ القبيحةَ بإزاءِ الصورةِ الحَسَنَةِ الجميلةِ التي عَقَّبَ الله ربُّ العالمينَ بهَا علىٰ تلكَ الصُّورةِ القبيحة المظلمة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧].

وترىٰ -أعزَّك الله ربُّ العالمينَ- أن الله -جَلَّت قُدرتُه- في النَّموذجِ الثَّانِي لم يُطِل البيانَ القُرآنيَّ فيه، وإنَّمَا أتَىٰ بِهَا مُوجَزةً سَريعةً حاسِمَةً حازِمَةً مُشرِقَةً نَيِّرةً، وأمَّا الأولُ فلالتِواءِ الباطنِ، وتَشَوُّه القلبِ احتاج الأمرُ إلىٰ التفصيل، كما ترىٰ في مطلع سورة البقرة؛ إذ ذكرَ الله ربُّ العالمين صفاتِ المتقين في ثلاث آياتٍ، ثم أعقَب بصفاتِ الكافرين في آيتين، فلما أراد أن يَصِفَ الطبقة الوسطىٰ، لا إلىٰ هؤلاء ولا إلَىٰ هؤلاء، تطلَّب البيانُ القرآنيُّ أن يُوصَفَ هؤلاء في ثلاثَ عشرَة آيةً، فوصف المنافقين وأحوالَهُم في ثلاث عشرةَ آيةً، وارجع إلىٰ مطلَع سورةِ البقرةِ تجد الأمر كما أقول إن شاء الله رب العالمين: صفات المتقين في ثلاثِ آياتٍ، وصفاتُ الكافرين في آيتين.

وأما المنافقون فصفاتهم فِي ثلاثَ عشرةَ آيةً، يذكر الله ربُّ العالمين أحوالًا

باطنةً ومساربَ خَفِيَّةً، ويُظهر الله ربُّ العالمين مكنوناتٍ طويةٍ في حَمأةٍ نَجِسَةٍ، من أجلِ أن يُعَرِّي هؤلاء؛ لأنَّ النفاق مأخوذٌ في الأصل من «النافقاء» وهي جُعْرُ اليرْبُوع -الجرْبُوع- الذي يجعلُ لنفسه في الأرض جُحْرًا، ثم يجعلُ هذا الجُحرَ متعددَ المسالكِ، مُتَعَدِّد الأبواب، يُرَقِّق طبقة ما فوق الجحر علىٰ سطحِ الأرضِ ترقيقًا في مواضع، فإذا تَتَبَّعَهُ صائدٌ متتبعٌ دخلَ من جحرٍ، ثُمَّ لم يخرج إلَّا من جحر لا يُتوقَّع، يذهب إلىٰ ما رقَّق في مَسْلَكٍ من مسالِكِهِ، خَفِيَّةٌ تلك المسالِكُ غيرُ بينةٍ، هي تحت الأرض لا تبينَ، يذهب إلىٰ ما رقَّق فيضربُه برأسه ضربةً يسيرةً، فإذا هو مُنْكَشِفٌ بائنٌ ظاهرٌ، ولكن هَيهَاتَ للصائدِ أن يلحَقهُ، فكذلك مساربُ الباطنِ في المنافقِ، انظر كيف تشوَّهَتْ؟ وانظر من أين أُخِذَ اللفظُ اشتقَاقًا؟ إنَّمَا أُخِذَ النِّفَاق من «النافقاء» وهي جُحر اليَربُوع -الجَربُوع- يجعل لنفسه تحت الأرض ما يصنع، ويفعل لذاته من الجحور ما ينبغي ألا يُعوَّلُ علىٰ بابه أبدًا، وكذا النِّفَاقُ، فالنفاقُ دخولٌ في الدينِ من بابٍ، وخروجٌ من الدين من بابٍ آخر.

فاللهم ثَبِّتْنَا علىٰ الحقِّ نَلْقَىٰ وجهك الكريم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمدﷺ.



الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وهو يتولَّىٰ الصالحينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسُولُه، صلىٰ الله عليه وسلمَ، صلاةً وسلامًا دائمين متلازمين، إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ النبيَّ ﷺ كما روىٰ أبو هريرةَ[1] رضي الله عنه، وأخرجه البخاري في موضعين من الصحيحِ، قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدينارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلة، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَة، إن أُعطِيَ رَضِيَ، وإن لَم يُعطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتكَس، وإذَا شِيكَ فَلا انتقَشَ، طُوبَىٰ لعبدٍ آخذٌ بِعَنانِ فَرَسِهِ في سبيلِ الله، أشعَثَ رأسُه، مُغَبَّرةٌ قَدَمَاهُ، إذا كَانَ في السَّاقةِ كان في السَّاقَة، وإذَا كانَ في الحراسةِ كانَ في الحِراسَةِ، إذا شَفَعَ لم يُشَفَّع، وإذا استأذَنَ لَم يؤذَنَ لَهُ**»[2].

(١) عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني، سيد الحفاظ الأثبات، الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ، كان مقدمه وإسلامه في أول سنة سبع، عام خيبر، كان آدم، بعيد ما بين المنكبين، أفرق الثنيتين، ذا ضفيرتين، قال رضي الله عنه عن نفسه: صحبتُ النبي ﷺ ثلاث سنين. قال الشافعي: أبو هريرة أحفظ مَن روىٰ الحديث في دهره، توفي عام تسع وخمسين من الهجرة، وله ثمان وسبعون سنة.

راجع ترجمته في «**سير أعلام النبلاء**» (٢/ ٥٧٨)، و«**المعارف**» (٢٧٧)، و«**حلية الأولياء**» (١/ ٣٧٦)، و«**العبر**» (١/ ٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٦٠- كتاب الجهاد، ٦٩- باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، (ح٢٧٣٠/ ٣/ ١٠٥٧)، وابن ماجه فِي «**سننه**» ٣٧-كتاب الزهد، ٨- باب في المكثرين (ح٤١٣٦/ ٢/ ١٣٨٦)، مختصرًا، والبغوي فِي «**شرح السنة**» باب ما يُتقىٰ من فتنة المال =

هذه الصورةُ تقابلُ الصورةَ القرآنيةَ التي مرَّ ذكرُهَا، صورةٌ بصورةٍ، وحالٌ بحالٍ، ووَصفٌ بإزاءِ وَصف، يذكر النبيُّ ﷺ عَبدَ الدِّينَارِ، وعَبدَ الدرهم، ذهبًا وفضةً، وأثَاثًا ولبسًا: «**تَعِسَ عَبْدُ الدينارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلة، تَعِسَ عَبْدُ الخَميصَةِ**» أثاثًا واقتناءً، ولُبسًا وارتداءً، وذهبًا وفضة، حيازةً وكنزًا، يقول النبي ﷺ: «**إنْ أُعطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَم يُعطَ سَخِطَ**» كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة:٥٨].

نعم، إن النِّفَاق صُورٌ لا تُحْصَرُ، نسأل الله -جلَّت قُدرَتُهُ- أن يُعيذَنا منها جميعًا... «**إنْ أُعطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَم يُعطَ سَخِطَ**»، ثم يأتي بصورةٍ خَبَرِيةٍ مرادًا منها المعنىٰ الإنشائي الذي يَكمُنُ وَرَاءَها ... يقولُ النبي ﷺ: «**تَعِسَ وانتكَس**» يدعو عليه بالتعاسة، وهي ضد السعادة. «**وانتكَسَ**» يعني: انقلبَ علىٰ وجهِهِ، فصارَ أعلاهُ أسفلَه، وأسْفَلُه أعْلَاه، وحقًّا مَا قالَ، بأبي هُوَ وأمي ونفسي ﷺ... منكوسٌ، منجوسٌ، معكوسٌ...

نعم؛ لأن القِيمَ قَد انقَلَبَت عندَهُ، ولأن العبادةَ صَارَت عندَهُ لما ينبغي أن يكونَ عبدًا، فكيفَ يمكنُ أن يكونَ تَصوُّرُه صحيحًا؟ إنَّما هو مَنكُوسٌ معكوسٌ فِي تَصَوُّره، ولا يُمكنُ أن يكونَ صحيحًا مستقيمًا بحالٍ... «**تَعِسَ وانتكَس،**

=

(ح٤٠٥٩/ ١٤/ ٢٦١)، جميعًا من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ... وذكره.

وإذَا شِيكَ» أي: أصيبَ بالشوكة «**فلا انتَقَشَ**» يعني: فلا استطاعَ أن يُخرجَها بالمنْقَاشِ؛ أي: بالملقاطِ، فظلت فيه مؤلمةً له لا يستطيع عليها صَبرًا، ولا عنها فِكَاكًا.

قال الله -جلَّت قدرته-: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** ﴾ [يوسف:١٠٨]، منهم داعٍ إلىٰ الله ربِّ العالمين في الحقيقةِ علىٰ بصيرةٍ، يُذلُّ نفْسَهُ لله ربِّ العالمين، همُّه وكَدُّهُ، همُّه ودأَبُه، حِرصُه وعادتُه: تعبيدُ الخَلقِ للحقِّ بغير ما إحساسٍ ولا ذَوقٍ بطَعمِ النفسِ، ولا برائحةِ الذات، وإنَّمَا هو بَذْلُ النفسِ لله ربِّ العالمين؛ مِن أجلِ تعبيدِ الخلقِ للحقِّ، علىٰ منهج سَيِّدِ الخلقِ محمدٍ ﷺ.

منهم داعٍ إلىٰ الله ربِّ العالمين علىٰ بصيرة، ومنهم داعٍ إلىٰ نفسه، إذا ما تبعه الخلقُ رضِيَ، وإذا ما انتكس فانعكس أمره عليه فنَفَّر الله ربُّ العالمين الخلقَ عنهُ، كما أخبرَ عن محمدٍ ﷺ.

وعجبًا والله هَذَا الأمرُ، لا ينقضي العجبُ منه أبدًا حتىٰ تقومَ الساعةُ، عجبًا أن يظن ظانٌّ أنه سيُعطَىٰ ما لم يُعطِ الله محمدًا ﷺ. يقول ربنا -جلَّت قدرته-: ﴿ **وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ** ﴾ [آل عمران:١٥٩] والواحد من هؤلاء فَظٌّ غليظُ القلبِ، يريد ألَّا يَنفَضَّ الخلقُ من حَولِهِ، فكأنَّمَا يريد أن يُعطَىٰ ما لم يُعطَه محمدٌ ﷺ، وهَيهَاتَ هَيهَاتَ، «**دون ذلكَ خَرْطُ القَتَاد**»[1]،

(١) هذا مثل من أمثال العرب الأقدمين، والخَرط: انتزاع الورق عن الشجرة، اجتذابًا بكفك، والقتاد: شجر له شوك أمثال الإبر وهذا المثل يُضرب للأمر العسير المنال. راجع «**مجمع الأمثال**» للميداني (١/ رقم ١٣٩٥/ ٤٦٧).

كما كانوا يقولون: فخَرْطُه الآن هَيِّنٌ يَسيرٌ.

اللهُ ربُّ العالمين يُبيِّن لَنَا فِي كِتَابِهِ العظيم أنَّ الأمرَ ينبغي أن يكونَ علىٰ بصيرةٍ؛ إسلامٌ مُصَفًّىٰ، وتربيةٌ علىٰ هذا النهج الأعدَل الذي جَاءَ به محمدٌ ﷺ، إسلامٌ لا شَوبَ فيه، مُبَرَّأٌ من كلِّ ما التصق به، ومن كلِّ ما لَحقَ به من الزوائدِ والحواشي، من كلِّ ما عَلَقَ بالعقيدةِ والعبادةِ والمعاملةِ والأخلاقِ والسلوكِ، يعودُ المرءُ إلىٰ النَّبعِ الصَّافي؛ إلىٰ مَا جَاءَ به محمدٌ ﷺ: كتابُ الله علىٰ مرادِ الله، وسُنَّة رسولِ الله علىٰ مرادِ رسولِ الله ﷺ، وما تركنَا الله ربُّ العالمينَ في هذِهِ الحياة نتقمَّمُ أهلَ الأفكارِ أفكارَهم، ولا نتكَفَّفُ أهلَ الآراءِ آراءَهم، وإنَّمَا جَعَلَ عِندَنَا الذخيرةَ وجَعَلَ لَنا العُقبىٰ، ونحنُ أَولَىٰ الخَلقِ بحملِ منهجِ الله ربِّ العالمين إلىٰ خَلقِ الله في أرضِ الله، من أجلِ استنقاذ البشرية من الهُوَّةِ التي هي علىٰ مشارفها؛ من الهاوية الحاطمة الحُطَمة، التي تكاد تبلغُ الخلقَ إلَّا من رحم الربُّ.

نحنُ أَولَىٰ الخلقِ -عبادَ الله- بالعودة إلىٰ النَّبْعِ، من غير ما التواءٍ، ومن غير ما تعريجٍ علىٰ بنياتِ الطريق، هذا صراطُ الله، وهذه سُبُل، هذَا سبيلُ الله، وهذه طُرقٌ علىٰ رأس كلٍّ منها شيطانٌ يدعو إليه.. ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

اللهُ ربُّ العالمين أخبرنا في القرآنِ العظيمِ بسبيلِ الخروجِ من النفقِ، بكيفيةِ الاهتداءِ، والخروج من التيهِ.

اللهُ ربُّ العالمينَ لَم يخلقنا هَملًا، ولن يتركَنا سُدًى ولا عَبَثًا، وإنَّمَا وضع لنا الضوابطَ والحدودَ، فعلينا بالعودةِ إلىٰ النبعِ الأَولِ.

يقولُ نبيكمﷺ: «**طُوبَىٰ لعبدٍ آخذٍ بزمامِ فَرَسِهِ في سبيل الله**»؛ أي: بعنانِ فرسِهِ، يعني: بسير لجامِ فرسِه، ثُمَّ قيَّد بقوله: «**في سبيل الله**»، كقوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قيدٌ لا ينبغي أن يُتحلَّلَ منه، ولا ينبغي أن يُطلقَ منه أبدًا، وإنَّمَا هو قَيدُ الأعمال في نياتها، وفي دوافعها.

يقولُ النبيُّ ﷺ: «**طُوبَىٰ** -وهي: الجنة أو شجرة فيها- **لعبدٍ آخذٍ بعنانِ فرسه في سبيل الله، إن كان في السَّاقةِ كان في السَّاقةِ، أو كان في الحراسةِ كان في الحراسةِ**» حيثما وُضع اتضع، وحيثُما كَانَ يَكُون.

إنَّ هذا الصنفَ المشرقَ فعلىٰ أمثالهم تقوم الدنيا بـ «**لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله**».

يقول النبيﷺ: «**إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة** -يعني: مؤخرة الجيش- **كان في الساقة**» ثمَّ يُبيِّن النبيُّﷺ أنَّه خمِلٌ مغمور: «**ولكن رُبَّ أشعثَ أغْبَرَ مَدفُوعٍ بالأبوابِ، لو أقسم علىٰ الله لأبَرَّه، رُبَّ أشْعَثَ ذِي طِمرَين، لَو أقسَمَّ علىٰ الله لأبَرَّه**»... نعم، إنه مجهولٌ عند الخَلقِ، لكنه معروفٌ عند الحَقِّ، وما يَضِيرك يا مسكينُ، إذا كنتَ آخِذًا بهذا الأصلِ العظيم، مُطلِّقًا لغير ذلك من الإقبالِ علىٰ الذاتِ وحبِّ النفسِ؟!

يقولُ النبيُّ ﷺ: «**إن استأذن لم يُؤذن له**»؛ لأنه غير معروف فهو منكورٌ،

لأنه لا يعرفه إلا ربُّ الأرض والسموات العُلَا، قَلبٌ مُشرِقٌ مُضيءٌ مُنيرٌ بِهَدي الله ربِّ العالمين.

الله ربُّ العالمين يُعطي ويَمنَعُ، الله ربُّ العالمين يَحبُو ويَمنحُ، الله ربُّ العالمين يَرفع ويَخفِضُ، الله ربُّ العالمين يُعزُّ ويُذلُّ، ليس لكَ من الأمرِ شيءٌ، الله ربُّ العالمين هو المعطي بالحقيقة، ومَن أراد العطاءَ فليتوَجَّه إلىٰ ربِّ الأرضِ والسماءِ، وأمَّا أن يَلتمِسَ الإنسَانُ مَا عنِدَ الله بمعصيةِ الله ربِّ العالمين، فهيهات أن يَصِلَ إلىٰ شيءٍ، وإنَّما هو الخَرابُ والبَوارُ والدمارُ، عِياذًا بالله، ولياذًا بجنابِه المنيع.

ودُونَك حديثُ سَهل بن سعدٍ السَّاعدِي[1] الذي أخرجه الشيخان في صحيحهما[2]، يقول: إنَّ النبيَّ قالَ في يوم خَيبر: «**لأُعطينَّ الرايةَ غدًا رجلًا**

(١) سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة، الإمام الفاضل المعمر، بقية أصحاب رسول الله ﷺ، أبو العباس الخزرجي الأنصاري، الساعدي، كان أبوه من الصحابة الذين توفوا في حياة النبي ﷺ وتوفي هو سنة إحدىٰ وتسعين.

راجع في ترجمته: «**سير أعلام النبلاء**» (٣/ ٤٢٢)، و«**شذرات الذهب**» (١/ ٩٩)، و«**أسد الغابة**» (٢/ ٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٦٠- كتاب الجهاد، ١٠١- باب دعاء النبي ﷺ إلىٰ الإسلام والنبوة، وألَّا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، (ح٢٧٨٣/ ٣/ ١٠٧٧)، ومسلم في «**صحيحه**» ٤٤-كتاب فضائل الصحابة، ٤- باب من فضائل علي بن أبي طالب (ح٢٤٠٦/ ٤/ ١٨٧٢)، جميعًا من طرق عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه عن سهل ابن سعد ... فذكره.

يحبُّ الله ورسولَه، ويُحبُّه الله ورسولهُ»، فبات القومُ ليلتهم تلك يدوكون -يعني: يختلطونَ في كلامِهم وفي منطقِهم- أيُّهم يُعطاهَا؟ فلما أصبحوا قال: «**أينَ عليُّ بن أبي طالب؟**».

وفي رواية لمسلمٍ -رحمة الله عليه- وهي عند البخاري، ولكن اللفظ لمسلمٍ[1] عن سَلَمة بن الأكوع[2] لا عن سَهلِ بن سَعدٍ الساعِدي أن عليًّا -رضوانُ الله عليه- كانَ في غزوة خَيبَر قَد رَمَدَت عينَاهُ، فتَخَلَّفَ عن الغَزوِ معَ رسولِ اللهﷺ، تخلَّف ولم يخرج لمرضٍ حلَّ به، وليس علىٰ المريض حَرَجٌ، وكانَتْ عيناهُ قَد رَمَدَتَا، فلما أبعَدَ الرسولُ ﷺ قالَ عليٌّ: أتخلَّفُ عن النبيِّ ﷺ؟ فمازالَ يشتدُّ في أثرِهِ سَعيًا سَعيًا، من أجلِ أن يصلَ إليه، حتَّىٰ وصَلَ إلىٰ المعسكرِ، ولكن لما باتُوا في تلك الليلة يختلطون لم يكن أحدٌ منهم يتوقعُ أبدًا ولو بدرجةٍ لا تقترب إلىٰ الأرقام ولا تمتُّ إليها بصلة، لم يكن واحِدٌ

(١) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٦٦- كتاب فضائل الصحابة، ٩- باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي، (ح٣٤٩٨/ ٣/ ١٣٥٧)، ومسلم في «**صحيحه**» ٤٤- كتاب فضائل الجهاد، ٤- باب من فضائل علي بن أبي طالب (ح٢٤٠٧/ ٤/ ١٨٧٢)، جميعًا من طريق يزيد بن أبي عبيد عن سلمة قال: ... فذكره.

(٢) سلمة بن عمرو بن الأكوع، أبو إياس الأسلمي الحجازي المدني، شهد مؤتة، وهو من أهل بيعة الرضوان، ولما قتل عثمان خرج سلمة إلىٰ الربذة، وتزوج هناك امرأة، فولدت له أولادًا، وقبل أن يموت بليالٍ نزل إلىٰ المدينة، وتوفي سنة أربع وسبعين، قال الذهبي: كان من أبناء التسعين، وحديثه من عوالي صحيح البخاري.

راجع في ترجمته «**سير أعلام النبلاء**» (٣/ ٣٢٦)، «**شذرات الذهب**» (١/ ٨١).

منهم يتوقعُ أن يكونَ المدعُو عليًّا ﵁، لم يكن أحدٌ منهم -للمرض الذي نزل بعلي- يتصوَّرُ مجردَ تصورٍ، لا... بل يتخيل مجرد تخيُّل، لا... بل يتوهَّمُ مجرد تَوَهُّمٍ: أن يكونَ عليٌّ ﵁ هو المدعو من النبي، لكي يُعطَىٰ الرايةَ من أجلِ الفتحِ علىٰ يديه، أما هو ﵁ فبات ليلَته لا يتطلع إلىٰ شيء، غايةَ ما هنالك أنه يشهدُ الغَزوَ، ولا يشارك فيه، عيناه قد أُصيبتا بالرمدِ، وأما عمرُ ﵁ فيقول: ما تمنيتُ الإمارةَ إلا ليلتئذٍ، لقول النبي ﷺ: «**رجُلٌ يحبُّه الله ورسولُه، ويحبُّ الله ورسولَه**» فمن أجل هذه ومن أجل قوله: «**يفتح الله علىٰ يديهِ**»، تمنَّىٰ عُمر ﵁ في تلك الليلة وهي مَرَّة يتيمة، أن يعطيه الرسولُ الرايةَ ﷺ.

تَخَيَّل حالَ المعسكرِ في تلك الليلةِ، القومُ كلُّهم يتمنَّىٰ الواحدُ منهم أن يُعطَىٰ الرايةَ في غدٍ إلا عليًّا ﵁، فهو وحده الذي انقطعَ مُناهُ مُنكَسِرًا، بل مَجزُورًا علىٰ عَتباتِ يأسِه لمرضِه، هو وحده الذي بَاتَ لا يُخالط نفسَه مجردُ هاجسٍ من أن يُعطَىٰ الرايةَ في غدٍ، فلمَا أصبحُوا كانَ الذي لا يُتَوَقَّع أن يكون هو المُعطَىٰ الرايةَ في غدٍ ﵁.

قال النبيُّ ﷺ: «**أين عليُّ بن أبي طالب؟**» قال القومُ: كَشبه المستنكرين: هو يشكوُ عَينه يا رسولَ الله خذ غيره، إنهم لا يَنقِمون علىٰ عليٍّ شيئًا، ويتنافسون منافسة شريفة؛ لأَنَّهم كانُوا يعرفونَ الخُصومةَ، ولا خُصُومة هاهنا، وإنَّما يُحِبُّ الواحدُ منهم لأخيه ما يحبُّ لنفسهِ، فكانوا خالصينَ لله ظاهرًا وباطنًا، «قالوا: يا رسولَ الله، هو يشكو عينيه، فجيء به فبصق الرسولُ في عينيه، ودعا له، فبرئتا كأن لم يكن بهما وجع» -رضوان الله عليه-.

دونك الرايةَ أيها الفاتحُ، دونك الرايةَ يا علي، فأخذَ الرايةَ، ومضىٰ مُشمِّرًا لا يلتفت، قال: «**امضِ علىٰ رسلِكَ، حتَّىٰ تنزل بساحَتهم، فادعُهم إلىٰ الإسلام، وأعلمهُم بحقِ الله فيه، فوالذي نفسي بيده لأن يَهدي الله بك رَجُلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمُرِ النَّعَمِ**» وهي أنفَسُ المقتنيات عند العرب من الدواب.

الرسولﷺ يعطيه الراية ويقول: «**علىٰ رسلك**» يمضي لا يَلوي، حتىٰ إنه لما أخذ الراية ﵁ أراد أن يستعلِمَ عن شيء، فوقف كوقوف الراسيات الشوامخِ، وقد جعل علىٰ الأرض ثابتتين قدماه، يقول: «**يا رسولَ الله إلامَ أدعو القومَ؟**» والنبيُّ يُبيِّنُ له ﵁.

هذا عليٌّ لم يكن يتوقعُ في الصباحِ عطاءً، فجاءه العطاءُ يَحبُو، بل يسعىٰ، بل يطيرُ، حتَّىٰ كانَ بين يديه، فأخذَ به بفضل الله -جلَّ وعَلا- والذين تَمنَّوا بالأمس لم يُعطوا شيئًا، لتعلموا أن المُعطِي في الحقيقة هو الله، وأنك لن تنَالَ ما عندَ الله إلا بطاعتِه، وأن ما عندِ الله لا يُنالُ بمعصيته.

فليتقِ الله أقوامٌ أخطئوا السبيلَ، وليتقِ الله أقوامٌ حادوا عن النهج المستقيم، أو ليتق الله أقوامٌ لم يعلموا أن الأمرَ إنما يبدأ من القلبِ؛ تصفيةً، وتهذيبًا، وتربيةً، وحملًا له علىٰ منهج الله ربِّ العالمين؛ من أجلِ أن يستقيمَ البدنُ، لأجلِ أن يستقيمَ صالحًا، علىٰ صلاح القلب، كما أخبر الرسولُﷺ، فإن صلاحَ هذا الظاهر من صلاح ذلك الباطن.

يقول النبيﷺ: «**إنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسدُ كلُّه ...**

ألا وهَي القلبُ»[1].

فجعل صلاحَ الجسدِ فرعَ صلاحِ القلبِ، وجعل صلاحَ الظاهرِ مَبنيًّا علىٰ صلاحِ الباطنِ.

فليتقِ الله أقوامٌ أخطئوا السبيلَ، وليَعُودُوا إلىٰ قول ربنا -جلَّ وعَلا-: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وليعودُوا إلىٰ قولِ النبي الأمين ﷺ: «**إذَا تَبايعتُم بالعينة، وأخذتم أذنابَ البقرِ، ورضيتُم بالزَّرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّط الله عليكُم ذُلًّا حتَّىٰ تَرجِعُوا إلىٰ دينكم**».

فلينظر أقوامٌ إلىٰ المرجوع إليه، وإلىٰ كيفية الرجوع إليه، تصفيةً وتربيةً،

(١) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» ٢- كتاب الإيمان، ٣٧- باب فضل من استبرأ لدينه (ح٥٢/ ١/ ٢٨)، ومسلم في «**صحيحه**» ٢٢-كتاب المساقاة، ٢٠- باب أخذ الحلال وترك الشبهات (ح١٥٩٩/ ٣/ ١٢١٩)، جميعًا من طريق الشعبي عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وأهوىٰ النعمان بإصبعيه إلىٰ أذنيه: «**إن الحلال بَيِّنٌ وإن الحرام بَيِّنٌ، وبينهما مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقىٰ الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمىٰ، ألا وإن حمىٰ الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسَدَت فسَدَ الجسد كله، ألَا وهيَ القلبَ**».

وقوله: «وأهوىٰ النعمان بإصبعيه إلىٰ أذنيه». أي: مدَّهما إليهما ليأخذهما، إشارة إلىٰ استيقانه بالسماع.

وقوله: «مضغة». المضغة: قطعة من اللحم، سميت بذلك لأنها تُمضغ في الفم لصغرها، قالوا: المراد تصغير القلب بالنسبة إلىٰ باقي الجسد، مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب.

وحينَئذٍ يرفعُ الله ربُّ العالمين الذُلَّ والهوانَ.

فاللَّهُمَّ ارفع الذُلَّ عنَّا يا ربَّ العالمين.

اللَّهُمَّ اغْفِر لَنَا وارْحمَنا، وعَافِنَا واعْفُ عَنَّا.

اللَّهُمَّ يَا ربَّ العَالَمين جَنِّبْنَا سَيِئَ الأخلاقِ لَا يُجنبّنَا سيِّئَها إلَّا أنتَ.

اللَّهُمَّ ارزُقْنَا صَالِحَ الأخْلاقِ، واهدنَا إليهَا لا يَهدينَا إليها إلَّا أنتَ.

اللَّهُمَّ اهدِنَا لصَالحِ الأخلاقِ لا يَهدي لصَالِحهَا إلَّا أنتَ، وجَنبنَا سَيِئَ الأخلاقِ لا يُجَنبنَا سيِّئَها إلَّا أنتَ.

اللَّهُمَّ خُذْ بأيدينَا إليكَ، وأقْبِلْ بقلُوبنا عَليكَ.

اللَّهُمَّ أحينَا مُسلمِين، وتَوَفَّنَا مُؤمنينَ، وألْحِقْنَا بالصَّالِحين.

اللَّهُمَّ أدرِكْ أمةَ نبيِّكَ ﷺ، واجمعْ اللَّهُمَّ شَمْلَهَا، وأَعلِ اللَّهُمَّ رايتَها، واجبُر كَسْرَها، وارأب اللَّهُمَّ صَدعَها، ولُمَّ اللَّهُمَّ شَعَثَهَا وشَملَها، يا ربَّ العالمينَ، ويا أرحمَ الرَّاحمينَ.

اللَّهُمَّ احرسْنَا بِعَينِكَ التي لا تَنَام، وبِرُكنكَ الذي لا يُضامُ، وبقُدرتِكَ علينَا، لا نَهْلِك وأنتَ رجاؤُنا.

اللَّهُمَّ إنَّا نَعوذُ بِكَ من كلِّ غِنًىٰ يُطغينا، ونَعُوذُ بِكَ من كلِّ فَقرٍ يُنسينَا، ونَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ يا ربَّ السَّمَواتِ والأَرضِ من كلِّ صَاحِبٍ يؤذينا.

وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ.

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊